جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

القرآن والمستشرقون

الأستاذ رابح لطفي جمعة

القاهرة
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القرآن والمستشرقون

الأستاذ رابح لطفي جمعة

القاهرة
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

قـال الله تعـالى :

« هو الذى أنزل عليك الـكتاب منه آيات محكمـات هن أم الكتاب وأخر متشـابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعـلم تأويله الا الله . والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنـا وما يذكر الا أولوا الألباب »

قرآن كريم

القرآن وعلماء الإستشراق

لقد فتحت حركة الاستشراق عيون الغرب الى دراسة الدين الاسلامى وحياة النبى والقرآن دراسة فيها الكثير من الجدية والنزاهة ، كما أن فيها الكثير من التحيز والغمز الخفى .

ولعل علماء الكنيسة المسيحية أن يكونوا أول من اعتنى باللغة العربية وحاولوا تعلمها للوقوف على مؤلفات العرب ومصنفاتهم ولاسيما فى الفلسفة والعلوم والعقائد . على أن هدفهم ــ كما يقول يوهان فيوك[1] ــ لم يكن علميا محضا ، بل انهم أرادوا الرد على الاسلام والتبشير بين المسلمين ودعوتهم الى المسيحية عن طريق تراجم عربية للانجيل ، أى أن غرضهم كان بعيدا كل البعد عن الدراسة العلمية والتحقيق .

ولم يتغير هذا الوضع فى بلاد الغرب كلها حتى القرن السادس عشر تقريبا عندما اشتدت الرغبة عند الغربيين فى ارسال

---

(١) وضع المستشرق يوهان فيوك .J. Fuck سنة ١٩٤٣ مؤلفا ذا أهمية فائقة عن تاريخ الاستشراق والمستشرقين فى أوربا منذ أول دراسات للغة العربية فى أول القرن التاسع عشر ثم وضع سنة ١٩٥٥ رسالة عن الدراسات العربية فى أوربا .

المبشرين الى البـلاد الاسـلامية بعـد أن فتح الأتـراك القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وأخذ بعض العلماء يفدون الى الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من «استانبول» ودمشق والقاهرة والقيروان وغيرها ، وليتعلموا العربية فى هذه الأقطار • وقد كان «ويلهام بوستل» الفرنسى الأصل أول هؤلاء المبشرين وقد أرسله ملك فرنسا «فرانس الأول» سنة ١٥٣٤ الى مصر ثم الى «استانبول» حيث تعلم العربية والتركية والعبرية وألم بعض الشىء باللغة الحبشية ــ ولما عاد الى وطنه عينه الملك أستاذا للغات الشرقية فى جامعة باريس سنة ١٥٣٧ فوضـع كتـابا فى النحو العربى أشار فيه الى أهمية دراسة اللغة العربية لفتح بـاب جـديد للمبشرين فى البلاد الاسلامية ، ونشر فى آخر كتابه ترجمـة لاتينية لسورة « الفاتحة » •

ثم قام بعض علماء اللاهوت بدراسة تراجم الانجيل العربية التى وجدت فى المخطوطـات التى كان «بوستل» قد أتى بها الى أوربا وباعها الى مكتبة جامعة هامبورج •

وفى سنة ١٥٩٠ ــ عرض يعقوب كريستمان « ١٥٥٤ ــ ١٦١٣ » الذى تعلم العربية على كتاب النحو لبوستل ــ على الأمير يوهان انشاء كرسى خاص للدراسات الشرقية وبصـفة خاصة العربية فى جامعة هامبورج غير أن هذا الاقتراح لم ينفذ قبل سنة ١٦٠٩ وقد اتخذ كريستمان ومن تبعه فى المانيا فى ذلك الزمان من دراسة العربية وسيلة لنشر المسيحية والتبشير بها فى الشرق العربى ولكن يوسف سكاليجـر (١٥٤٠ ــ ١٦٩٠) انتهج فى فرنسا منهجا آخر مغايرا ، حتى انه يمكن القول بأنه

منذ دراسات سكاليجر بدأت الدراسة الحقيقية لتاريخ الاسلام وللحضارة الاسلامية أو ما نطلق علية الآن « الاستشراق » •

وقد ازدادت معرفة العلماء الافرنج بعلوم العرب وخاصة الطب العربى — عندما ظهرت الحروف العربية والطباعة فى أوربا لأول مرة وقد لعبت هولندا فى حركة الاستشراق دورا كبيرا فكان توماس ارنيوس (١٥٨٤ — ١٦٢٤) أول من قام بنشر متن من الأدب العربى فى أوربا عندما طبع سنة ١٦١٥ كتاب الأمثال للميدانى كما قام أيضا بطبع سورة يوسف • كذلك يرجع الفضل الى المستشرق الهولندى ريلاند فى تبديد الخرافات والأباطيل التى نسجت حول النبى •

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بدأت أوربا تتجه الى الاقطار العربية والاسلامية لاستعمارها ، وقد لعبت حركة الاسشراق دورا خطيرا مع موجة الاستعمار التى اجتاحت العالم العربى خلال هذين القرنين اذ زادت رغبة طواغيت الاستعمار اذ ذاك فى الوقوف على جميع ما يتعلق بالشعوب العربية والاسلامية التى قهروها بالفتح تارة وبالمعاهدات غير المتكافئة تارة أخرى •

على أن ما يهمنا فى المقام الأول فى هذا الصدد هو ما وضعه المستشرقون فى تاريخ الدعوة الاسلامية وتاريخ النبى عليه الصلاة والسلام وبصفة خاصة ما تعلق من هذه الدراسات والأبحاث بالقرآن الكريم •

ولعله أن يكون من المتعذر أن نأتى على ذكر هؤلاء المستشرقين

جميعهم ، الا أننا نجتزىء هنا بذكر أشهرهم وأهمهم فى مجال هذه الدراســـات ولعل تيودور نولـــدكه Th. Noldeke (١٨٣٦ ــ ١٩٢٠) أن يكون أول هؤلاء المستشرقين الذين عنوا عناية خاصة بدراسة القرآن دراسة علمية جادة •

فقد وضع سنة ١٨٥٦ مؤلفا حـــول نشوء وتركيب الســـور القرآنية ونال به اجازة الدكتوراه وقد عبر نولدكه عن هـــذا المؤلف بأنه انتاج فتوة لا يتسم بالنضـــوج ثم لـــم يلبث أن تمكن سنة ١٨٦٠ من نشر كتابه القيم (تاريخ القرآن) وتقدم به لنيل الجائزة التى رصدتها أكاديمية المحفوظات الفرنســـية ففاز بهـــا •

وعلى الرغم من ان نولدكه قد وضع فى هذا الكتاب أبحاثه فى القرآن على قواعد ثابته عسة الا أنه لم يكن راضيا كل الرضا عن كل ما جاء فى هذ المؤلف من آراء ونظريات،فقد تردد كثيرا فى اعادة نشره لأنه كما قال فى خط به للناشر الذى طلب اليـــه أن يعيد نشر هذا الكتاب « لم يكن فى استطاعنى أن أعيد نشر هذا الكاتب فى ثوبه الجديد الذى قد يرضينى ، لذلك افتـــرحت على الناشر اسم تلميذى وصديقى شواللى الذى أظهر ارتياحه واستعداده لتـــأدية هذه الرسالة ، فقد جعل من هذا الـــكتاب الذى ألفته منذ نصف قرن سفرا يتفق الى حد ما مع المقتضبات العلمية الحديثة ••• أقول الى حد ما ذلك لأن آثار تهور الشباب لا يمكن محوها جميعا الا باعادة تأليف كتاب جديد وكثير من المسائل التى كنت أعتقد قليلا أو كثيرا بصحتها ثبت لى فيمـــا بعد أنها غير مؤكدة » •

على أنه مهما يكن من أمر فقد أخرج شواللى F. Schwally الطبعة الثانية من هذا الكتاب فنشر المجلد الأول سنة ١٩٠٩ ثم نشر المجلد الثانى سنة ١٩١٩ ثم زاد عليه بركستر وبريتسل الألمانيان Bergsträsser, Pretzet مجلدا ثالثا سنة ١٩٣٨ • ويعد هذا الكتاب بحق — أكبر موسوعة فى علوم القرآن يرجع اليها كل باحث وان لم يتفق مع المؤلف فى كثير مما جاء فيها •

كذلك نذكر من المستشرقين جولدزيهـر (١٨٥٠ — ١٩٢٠) المستشرق المجرى وأهم مؤلفاته « دراســات محمــدية » فى جزءين و « اتجاهات فى تفسير القرآن » •و « عقيدة الاسلام وشريعتــه » •

أما مرجليــوث المستشرق الانجليزى ، فقد وضع مؤلفــا عن حياة محمد ملأه بكثير من الأغاليط والأباطيل والاكاذيب وخصوصا عندما تحدث عن الوحى المحمدى ووقف حائرا أمام تفسيره وتعليله بعد أن سلم بصدق النبى وأمانته واخلاصه مما سنبينه فى حينه فى هذه الدراسة •

على أن كثيرا من المستشرقين غير من ذكرنا ألفوا كتبــا فى تاريخ النبى وتناولوا فى كتاباتهم مباحث كثيرة عن القــرآن من أمثال لويس شبنجر (١٨١٣ — ١٨٩٣) الذى ألف كتابا عن « حياة محمد وتعاليمه » ودرمنجهيم الذى وضع كتابا عن تاريخ محمد وتحدث فيهعن القرآنووحيه وجمعه وتدوينه وغير ذلك من الدراسات القرآنية • كذلك كازانوفــا الذى ألف كتابه Mohammed et la fin du monde ومونتيه الذى ألف كتاب « محمد والقرآن » والمستشرق الفرنسى جانبيه مــؤلف كتاب

« تاريخ محمد » والعلامة ماكس مايرهوف فى كتابه « العلم الاسلامى » وسانت هيليار وهوار وزويمر والبرنس كيتانى الايطالى والبرنس جيوفانى بورجيز وغيرهم كثير جدا •

أما وليم موير فقد ألف سنة ١٨٧٨ كتابه عن القرآن ، The coran, its Composition and theackiny كذلك بلاشير Blachére الذى وضع سنة ١٩٤٧ دراسة عن القرآن حشاها بكثير من الأغاليط والشبهات وأسماها بالمدخل الى دراسة القرآن Introduction au Coran وقد ضمن هذه الدراسة كثيرا من آراء نولدكه وشواللى فى موسوعتهما عن القرآن •

والى جانب هذه الدراسات كتب المستشرق بوهل F. Buhl دراسة عن القرآن فى دائرة المعارف الاسلامية كما وضع المستشرق ارنورجيفرى : Arthur Jeffery كتابا باسم مواد لتاريخ القرآن : Materials for the history of the Koran كما كان للمستشرق الألمانى فلوجل Guston Flûgel (١٨٠٢ — ١٨٧٠) الفضل فى فهرسة ألفاظ القرآن منذ أكثر من قرن فى كتابه المسمى (نجوم الفرقان) — كما كان المستشرق الفرنسى جول لابوم الفضل فى فهرسة بعض مباحث القرآن فى كتابه « تفصيل آيات القرآن الكريم »•

على أنه مما ينبغى الاشارة اليه فى هذا الصدد أن كتاب السيرة النبوية وان لم يخفوا من حياة الرسول كبيرة ولا صغيرة الا ذكروها — الا أن هذه الطريقة فى التأليف والتصنيف

تدعو للأسف حقا لأن المؤرخين ـ سامحهم الله وعفا عنهم ـ حشوا مؤلفاتهم بكثير من الأخبار السقيمة والأحاديث المكذوبة والوقائع المدسوسة والاسرائيليات المجوجة التى لم يقم عليها سند أو دليل وملأوا بها الصفحات تلو الصفحات دون تمحيص أو تحقيق أو تدقيق أو موازنة بين المعقول وغير المعقول ، ولم يكن هؤلاء الرواة ولا أولئك المؤرخون فى وقت تدوين مؤلفاتهم ومصنفاتهم يحسبون حساب نقاد مكرة من علماء الاستشراق يفتشون كل زاوية وينبشون كل خفية وخبيئة .

على أننا مع ذلك نحمد لهؤلاء المؤرخين ما فعلوا ، لأنهم لو لم يذكروا تاريخ حياة الرسول بالتفصيل على النحو الوارد فى كتب السيرة لخلق المستشرقون بخيالهم واطلقوا لأنفسهم عنان الأوهام والتظنن والتخمين والافتراض ، لأننا نجد هؤلاء المستشرقين فى مؤلفاتهم عن النبى لا يسلمون من افتراض وقوع أمور وحوادث فى حياة الرسول لم تحدث ولم تقع فى الحقيقة على الرغم مما ذكره رواة السيرة من أدق التفاصيل عن حياة الرسول حتى ما تعلق منها بأخص خصائصه ، فما بالك لو كان هؤلاء المؤرخون قد نقلوا هذه التفاصيل واجتزأوا من الأحداث والوقائع بالاشارة والتلميح دون الافاضة والتصريح ؟ .

***

وبعد فليست هذه الصفحات دفاعا عن القرآن لأن القرآن ليس فى حاجة الى قلم العاجز كاتب هذه الصفحات للدفاع عنه

... ان هذه الصفحات ليست الا عرضا لشبهات علماء الفرنج من أهل الاستشراق حول القرآن .. شبهات أثاروها حــول وحى القرآن وجمعه وتدوينه وأسلوبه والناسخ والمنسوخ ، وما جاء به من اشارات تتصل بالعلوم ونظريات العلم الحديث ، وما ورد به من تاريخ الأمم والأديان والعقــائد الســابقة ، والأنبيــاء وأحداث المــاضى .

وقد حاولت فى هذه الصفحات الرد على هذه الشبهات مستندا فى ذلك الى النصوص التــاريخية المتواترة التى زخرت بها كتب السيرة النبوية وكتب الحديث وتفاسير القرآن والمؤلفات التى وضعت فى علوم القرآن سواء ذلك فى العربية أو الافرنجية . وانى لأرجو أن يكون فى هذا العمل نفع لمن أراد الله له أن ينتفــع به والله ولى التوفيق .

المؤلف

وَحْيُ الْقُرْآن

« وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه على حكيم وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » .

« الزخرف »

١ ـ حالة النبى قبل البعثة :

مما لاشك فيه عند كل المؤرخين وكتاب السيرة النبوية ـ سواء أكانوا من العرب أم من الافرنج أن الله بعث نبيه على رأس الأربعين اعتمادا على ما نطقت به الروايات الصحيحة المشهورة التى كادت تبلغ حد التواتر واستفاضت بين العامة والخاصة وتناقلتها الألسنة قديما وجديدا ، كما أنه لا شك عند أحد من هؤلاء أو أولئك أن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد وصل هذه السن دون أن يظهر بأى مظهر عقلى أو علمى يدل على مستقبله فلم يكن لديه مواهب أدبية ظاهرة ولم ينبغ فى شىء من الصناعات أو الفنون ، اللهم الا رعاية الغنم وبعض التجارة، حينا لزوجته وحينا لنفسه ، ولم يتول شيئا من أعمال قريش فى دينها ولا دنياها ، ولا كان يعبد عبادتهم على طريقة منتظمة، ولا يحضر سامرهم ولا ندوتهم التى كان الوصول اليها معلقا على شرط بلوغ سن الاربعين وخصوصا ـ وأهم من كل شىء ـ أنه لم ينظم الشعر كما كانوا ينظمون ولا عنى بالخطابة كما كانوا يعنون ولم يؤثر عنه قول ولا عمل يدل على النبوغ أو حب الرياسة أو الشهرة أو البحث فى شئون السياسة . ولم يشارك فى الاعتقاد بشىء من أساطير الجاهلية ومثيولوجيتها ولا سعى الى أمر من أمور الفخر وأسباب الغزو والحرب ، بل كان منذ طفولته أليف الوحدة وسمير العزلة غير أنه تميز فى نشأته على

أترابه وأقرانه بالتزام الصدق والأمانة وسمو الأدب فى المعاشرة الاجتماعية ، واشتهر بهذه الخلال فلقبوه بالأمين •

وهذه الحقيقة يعترف بها نقاد الافرنج من علماء الاستشراق ويسلمون بها ولا يجادلون بشأنها،وعلى رأسهم مرجليوث وهو من غلاة الناقدين للنبى فيقول فى ترجمته:« ان محمدا كان بعد زواجه تاجرا خاملا غيرمتميز على أقرانه بشىء وكل ما يؤثر عنه من الأقوال فى تلك الفترة كان عاديا أو تافها ولا يستحق التدوين ••• ومعظم أبطال الأمم ظهروا لدى الحوادث الجسيمة التى تهيىء لهمظروف الظهور فتسنح لهم فرصة العمل والشهرة،فالأزمة أو الموقف الحرج يدعوهم فيلبون نداءه،وهكذا يشيدون مجدهم بأعمال جليلة تنقذ أوطانهم أو تخلصها من خطر داهم ••• أما محمد فلم توجد له هذه الفرصة ولم تحدث لوطنه أزمة تدعوه ، فهو ليس مدينا بظهوره لأزمة قومية من الأزمات التى تظهر الأبطال فى الأمم • ومن المستحيل أن نجد ظرفا قويا يحفزه الى الظهور بمظهر النبوة والرسالة،واذن لايكون للظروف فضل فى ظهوره ولم يستغل من موقف أمته شيئا ، ولكنه على الرغم من عدم استناده الى مثل هذا الظرف الذى استند اليه مثله كل العظماء ــ ظهر فجأة على قمة الأربعين على رأس جمعية سرية (هكذا يصف مرجليوث جماعة المسلمين الأولى متأثرا بالأفكار الثورية الحديثة) غايتها احداث انقلاب لهدم الكيان الاجتماعى واعادة بنائه من جديد » •

هذا قول مرجليوث وهو يبرىء محمدا ــ عليه الصلاة

السلام ـــ من التدبير السابق وينفا عنه الخطة المرسومة السابقة على الوحى •

ويمضى مرجليوث الى القول انه على افتراض وجود هده الخطة عند محمد والاستعداد لها بطريقة البرلمان المكى (دار الندوة) فلم يكن لينجح كثيرا ، لانه لم يكن قبل النبوة فصيحا ولا حاضر البديهة ولا قادرا على المناقشة والحوار وسرعة الجواب للوقوف أمام فحول قريش أمثال أبى جهل الذى كان يسمى فرعون قريش وغيره عشرات من الدهاة وجبابرة العقول وخطباء المنابر وشعراء المحافل الذين خضعوا فيمابعد للاسلام • ومع هذا العجز اللفظى فقد كانت طريقة دار الندوة أسهل للنبى وأكثر انطباقا على مزاجه لأنه كان يميل الى الطرق الودية العادية ويفضل الخطط المألوفة ، أما طريقة الثورة والانقلاب والهدم التى لجأ محمد اليها وهى تخالف طبعه ومزاجه فلا ريب أنه أقدم عليها مرغما ، أى أنه لم يكن لديه مجال بين المسلكين ، ولو أنه كان مدبرا أو متصنعا اذن لاختار خطة دار الندوة •

واذن يكون مرجليوث مقرا بأن محمدا ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ قد خضع لدافع خارجى من غير تدبير •

كذلك يقول المؤرخ ر•ف•ديبيل فى كتابه عن محمد ان محمدا فى الفترة اللاحقة للزواج والسابقة على الوحى من سنة ٢٥ الى ٤٠ عاش عيشة هادئة ولم يكن يفكر فى شىء لأن مستقبله المادى كان مضمونا ، لأن خديجة صممت على استمرار أعمالها التجارية

فازدهرت جهودها وأثمرت ثروة حسـنة وكان الزواج سعيدا ومنتجا ،وكانت خديجة ولادة ، فقد دخلت له بثلاثة أولاد من زواج سابق ورزقت منه بأربع بنات وعدد غير معين من الأولاد (يشير الى القاسم والطيب) ولما كان محمد لا يحب أن يبقى عاطلا فقد توفق الى شريك وافتتح معه متجرا فى مكة ،وفى سنة ٦١٠م عندما كان محمد فى الأربعين لم يكن له شأن يذكر سوى أنـه تاجر غير معروف لم يحدث له حادث يميزه عن قرنائه ولم يؤثر عنه كلم يدل على مستقبله ، وكانت كل المظـاهر تدل على أنه سيستمر رجلا عاديا •••• ولكنه ظهر فجأة بصفات مدهشـة منها حب الاستشهاد والبساطة الصادقة والاخلاص الذى لا حد له ، وكان فوق كل شىء معتقدا تمام الاعتقاد برسالته الالهية،وجاء القرآن بآيات لا تجارى فى جمال الانفعال الذى تحدثه فى نفس سامعها أو قارئها وقد قدم الله وجعـله كل شىء وعمل على ملاشاة شخصيته وأقر لله بكل قدرة وارادة •

ثم يتساءل ديبيل فى حيرة ويقول :

هل كان محمد مجنونا فظيعا أم كان عبقريا لا مثيـل له فى الدهـاء (١) ؟

هكذا كانت حـال النبى قبل الوحى والبعثـة وهى حـال باعتراف المستشرقين لم تكن لتنبىء بشىء عن مسـتقبل هذا

---

(١) ديبيل ، محمد ، طبع لندن سنة ١٩٣٨ ، ص ٤١ـ٤٥ .

النبى الأمى الذى قاد بنجاح منقطع النظير أعظم وأخلد ثورة فى تاريخ الانسانية ، واذن فالوحى والبعثة والنبوة كانت أمورا ربما لم تكن لتخطر على النبى ببال وفى هذا أكبر دليل على صدق الرسالة وصدق الوحى وعلى كل ما أخبر عنه الرسول •

٢ ــ الوحى لغــة :

ولما كانت مسألة وحى القرآن على أعظم جانب من الأهمية ــ فاننا نعالجها فى هذا الباب من جميع نواحيها بالتفصيل لاقناع القارئين لاسيما أحرار الفكر والمرتابين بحقيقة هذه الظــاهرة الروحانية وتعليلها بالأسباب العلمية الصحية المنطقيــة على البحوث الحديثة بعد استيفاء جميع المصادر القديمة والحديثة، ونعرض فى تلك الأثناء لشبهات المستشرقين حول هذه الظاهرة•

والوحى لغة : من وحى وأوحى تستعمل للاشارة ولكل ما ألقفته الى غيرك والرسالة والكتابة كما قال رؤية بن العجاج « لقــد كان وحاه الواحى » •

كذلك يذكر اللغويون لكلمة الوحى معانى كثيرة منها الاشارة السريعة والالهام والــكلام الخفى والأمر والتسخير والرؤيــا الصادقة والصوت ، ثم غلب استعمال الوحى على ما يلقى الى الأنبياء من عند الله أو هو على حد الاصطلاح الشرعى : اعلام

الله تعالى أنبياءه اما بكتاب أو برســالة ملك فى منــام أو الهام » [1] .

فالوحى بهذا المعنى : فيض الهى زود الله به طائفة مختارة من البشر ليكونوا فيما بعد رسله المبعوثين لهــداية البشر الى الخير بعد أن يجعلهم خلقا ذوى طاقات سامية مستعدة لتلقى فيوضه والهامه ويمدهم من سنا الحق وعلاماته ما يكون فارقا قاطعا بين الوسوسة الخادعة وبين الالهــام الصادق .

٣ ــ أول ما بدىء به الرسول من الوحى :

وقد أجمعت المصادر العربية والافرنجية على أن أول مابدىء به الرسول من الوحى هو الرؤيا الصادقة ، فقد روى عن عائشة « ان أول مابدىء بهصلى اللهعليهوسلم الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح » . ثم حببت اليه الخلوة والانفراد بغار حراء يخلو به الليالى ذوات العدد حتى جاءه الحق وهو فى الغار ، اذ جاء الملك فقال :

ــ اقرأ .

قال :

---

(١) محمد الحسينى الظواهرى ، التحقيق التام فى علم الكلام، ص ١٦٠ ، معجم القــرآن للمصرى واقــرب الموارد للشرتوى والكشاف ومفردات الأصفهانى .

ــ ما أنا بقارئ ! ؟

قال الرسول :

فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ. فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأوربك الاكرم الذى علمبالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . يقول محمد لطفى جمعة فى كتابه « ثورة الاسلام وبطل الأنبياء » :

« وكأنه بهذا الغط وهو الضم والعصر يوصل اليه قوة تجعل الروحانية فيه أقوى من البشرية ليستعد لتلقى الآيات الالهية ليكون واسطة بين الخالق والخلق ومنتهى الحاضر ومبدأ الغائب كما كان الملك أو الروح الأمين واسطة بين الخالق ومحمد ــ عليه أفضل الصلاة والسلام [1] » .

ولما كان النبى لا يتوقع مجئ الملك مما يدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن له خطة مرسومة فى عقله الظاهر، وأنه لم يكن يتوخى غاية معينة ، وأنه لم ينتظر ما لقيه ، فقد بغت واضطرب وارتعب ورجع بهذه الآيات الى بيته وفؤاده يرجف وبدنه يرتعد ، ولكنه محفوظ الرشاد ، وقال لزوجته خديجة :

---

(١) محمد لطفى جمعه ، ثورة الاسلام وبطل الأنبياء أبوالقاسم محمد بن عبد الله ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٥٠٧

ـ زملونى زملونى •

فلفته خديجة ودثرته بثيابها وصبرت حتى زالت رعدته واطمأن روعه فأخبرها الخبر وقال :

ـ لقد خشيت على نفسى •

فقالت له أم المؤمنين :

ـ كلا والله ما يخزيك الله أبدا ! انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق !!

اذن فالثابت من ذلك أن أول ما بدىء به الرسول من الوحى هو الرؤيا الصادقة أو الصالحة فما كان عليه الصلاة والسلام يرى من رؤيا الا جاءت واضحة كفلق الصبح سواء كانت الرؤيا سارة أو شاقة ، من ذلك رؤياه قبل معركة أحد وكذلك رؤياه كأن كلبا أبقع يلغ فى دمه وقد تفسرت هذه الرؤيا بأن شمرا الأبرص يقتل الحسين فكان بين الرؤيا وتفسيرها خمسون عاما وقد تحققت بعد وفاة النبى بعشرات السنين •

والنبى نفسه يعلل صدق الرؤيا بتنبه العقل الباطن الذى يعبر عنه بالقلب أو الفؤاد كما فى قوله عليه السلام « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا » •

وللرؤى والأحلام شأن كبير فى التاريخ قديما وحديثا وفى الأديان وعلم النفس وليس هنا بالطبع مجال الخوض فيها •

٤ ــ كيفية نزول الوحى :

أما عن كيفية نزول الوحى على النبى وحالات ذلك فقد وافانا واضعو السيرة وجامعو الأحاديث النبوية بكل ما يتصل بذلك وصوروا لنا طريقة نزول الوحى تصويرا دقيقا سواء فىالليل أو النهار ، فى الحر أو البرد ، فى السلم أو الحرب ، وكادوا لا يغفلون جزئية من الجزئيات الصغيرة فى هذا المجال • قالت عائشة رضى الله عنها بيد أن الحارث بن هشام سأل رسول اللهصلىالله عليه سلم فقال :

ــ يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحى ؟

فقال عليه السلام :

ــ أحيانا يأتينى مثل جلجلة الجرس وهو أشده فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما أقول •

وقالت عائشة :

ــ ولقد رأيته فى اليوم الشديد البرد ينفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا •

وحدث الرسول عن فترة الوحى فقال :

ــ بينما أنا ماش اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت

بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالســا على كرسى بين السماء والأرض ففزعت منه فرجعت ، وفى رواية أخرى عبرفيها الرسول عن رعبه من رؤية الملك يقول : فجئثت منه رعبا حتى هويت الى الأرض !!

ويتضح من ذلك أن حالة الرسول كانت تتغير عنــد نزول الوحى حتى يتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد ويزيد وزنه حتى ان ابن قيم قال فى زاد المعاد : أن راحلته لتبرك به الى الأرض اذا كان راكبها ٠

وجاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيــد بن ثابت أكبر كتاب الوحى المحمدى فثقلت عليه حتى كادت ترضهــا ٠ يقول زيد :

ـ فوالله ما حدث ووجدت شيئا أثقل من فخذ رسول الله ٠

وكان الصحابة يعرفون حين ينزل عليه الوحى وهو معهم قال عبــادة :

ـ كان النبى اذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد ٠

وقد رأى يعلى بن أمية الرسول حين نزل عليه الوحى وهو محمر الوجه يغط لذلك ساعة ثم سرى عنه ٠ وروى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعالج من التنزيل شدة مما يجعله يحرك شفتيه فانزل الله تعالى قوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه » ٠

وكان شعور النبى فى كل مرة عند نزول الوحى عليه أن نفسه ستقبض ، وكان الغالب يغشى عليه أو يصير كهيئة السكران (عن أسماء بنت عميش فى أسد الغـابة ص ٣٩٦ ، ٥٦٠) . وذلك لتغيره عن حالته المعهودة تغيرا شديدا .

ولكن المؤرخين أجمعوا على أن الرسول كان يستبقى عقلـه وتمييزه ووعيه كاملا،وان كان الوحى يملك عليه نفسه ويستحوذ على مشاعره فلا يستطيع أن يرفع طرفه اليه حتى ينقضى الوحى وهو فى ذلك يستقبل الرعدة والكرب فيربد وجهه وتغمض عيناه ويخرج منه صوت كصوت الجمـل ويسمع عند وجهه صـوت كدوى النحل (حديث عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت) .

المهم أن النبى كان فى أثناء نزول الوحى يحرص على وعى ما يوحى اليه فهو يقول مرة « فيفصم عنى وقد وعيت ما قال » ويقول مرة أخرى « فيكلمنى فأعى ماأقول » — فأثبت لنفسه الوعى الكامل لحاله قبل الوحى وحاله بعد الوحى وحاله فى أثناء الوحى سواء أخفت أم اشتدت وطأة التنزيل الربانى عليه .

وبهذا الوعى الكامل لم يخلط عليه السلام مرة واحدة — طيلة العصر القرآنى الذى يضم كل مراحل التنزيل — بين شخصيته الانسانية المأمورة المتلقية وشخصية الوحى الآمرة المتعالية(١)

---

(١) دكتور صبحى الصـالح ، علوم القرآن ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٢٨ .

كذلك نهى عليه السلام أول العهد بنزول الوحى عن تدوين شىء سوى القرآن لكى يحفظ للقرآن صفته الربانية ويحـول دون اختلاطه بشىء ليست له هذه الصفة القدسية فقال :

ــ لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب متعمدا فليتبوأ مقعده من النار •

هذا بينما كان عليه السلام عند نزول الوحى ولو آيــة أو بعض آية يدعو أحد الكتبة فورا ليدون ما نزل من القرآن •

٥ ــ تخرصات المستشرقين :

ويجب هنا أن لا يفوتنا أن نؤكد أن الأعــراض التى كانت تبدو على الرسول والتى كان يعــانى منها عناء شديدا عنــد نزول الوحى لم تكن أعراضا لنوبات عصبية أو تشنجــات هيستيرية ــ كما يزعم المتخرصون من علماء المشرقيات ، ذلك أن الفرق بين الحالتين كبير يدركه كل من له اثارة من علم •

وايضاحا لذلك نقول : ان الهيستيريا كمــا بينها الأســاتذة كريكيه والاندوز وشاركو ــ داء عصبى عضال وهو وراثى صفاته المميزة شذوذ خلقى حاد وحساسية متطرفة تصل الى حــدود غير معقولة ثم يزداد المرض فيشعر المصاب بالاختناق وبضيق فى الصدر عظيم وبخفقان مزعج وارتعاش واضطرابات خطيرة فى الهضم وقد يصحب هذه الأعراض شلل فى بعض الأعضــاء فاذا تابع المرض تقدمه جاء دور التشنج فيسبقــه بكاء وعويل

وكرب عظيم وهذيان ينتهى بالاغمـــاء فاذا تجاوز هذه الدرجة فان المريض يرى أشباحا تهدده وتسخر منه أو تزعجه ويسمع أصواتا لا وجود لها فى حس غيره ويقع المريض فى هذا الدور فى اغماء وسط حركات مضطربة بيديه ورجليه وقفز من مكان الى مكان على صورة تدفع الذعر فى قلب كل من يراه •

يكفى ردا على من يزعم أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان مصابا بنوع من هذه النوبات العصبية أن نقول : أن الطب لم يعرف حالة واحدة كان فيها المريض بالهستيريا أو بأى نوع من هذه الأمراض العصبية قال وهو واقع فى غيبوبة كلاما مفهوما له معنى معقــول وانما كل من يشاهد المريض وهو على حالته هذه يسمع منه هذيانا •

لقد كان الرسول ذا مزاج معتدل وليس كما يزعم كارليل حاد الطبع نارى المزاج • يقول المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون: ان محمدا كان على تمام الاعتدال فى مزاجه • ويقول ماكس ماير هوف فى كتابه « العالم الاسلامى » : لقد أراد بعضهم أن يرى فى محمد رجلا مصابا بمرض عصبى ولكن تاريخ حياته من أوله الى آخره ليس فيه شىء يدل على هذا كما أن ما جـــاء به فيما بعد عن التشريع والادارة يناقض هذا القول » •

ويقول بلاتونوف فى تاريخ العالم : وغاية ما نقدر أن نجزم به هو تبرئة محمد من الكذب والمرض •

هذه احدى فريات المستشرقين وما أكثر ما افتروا •

٦ ـ تعليل الوحى :

وهنا تعرض لنا مسألة ذات خطورة تلك هى : هل الوحى الهام يفيض من نفس النبى الموحى اليه أم أن الوحى شىء جاء من عالم الغيب وراء عالم المادة والطبيعة ؟

ان هذه المسألة هى محور الخلاف بين النظرية الاسلامية وبين النظرية المسيحية فى الوحى المحمدى ، ومن حولها حلا لكثير من المستشرقين أن يثيروا الغبار وأن يقذفوا بالشبهات الغليظة ويقولوا اننا لا يمكن أن نفسر ظاهرة الوحى المحمدى الا اذا وقفنا على كيفية عمل عقل الشاعر عندما ينظم الشعر !! [1] .

ويفسر البعض ظاهرة الوحى بما يعرف فى اصطلاح الروحية الحديثة بحالة الغيبوبة الواعية ، Conscious trance فالروح تتكلم أحيانا خلال الوسيط الذى يكون واقعا اذ ذاك فى غيبوبة ولكنه يكون واعيا .

والأعراض التى كانت تحدث للنبى أثناء نزول الوحى تدل دلالة واضحة على حدوث مايشبه الغيبوبة التى تحدث للوسطاء الروحيين عند اتصالهم بالأرواح وهيمنة الأرواح عليهم ، فجبريل كان يتمثل للرسول تارة فى صورة رجل وذلك هو التجسد الكلى ، وقد يسمع الرسول صوته دون أن يراه وهذا

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج ١٦ ، ص ٥٩٨ ومابعدها.

هو الصوت المباشر وهو عبارة عن مخاطبة الروح بصوته دون أن يتجسد • وكان الرسول يعانى عند نزول الوحى عناء شـديدا وتظهر عليه أعراض ذلك كالرعدة والعرق والاغماء دون فقـدان الوعى وتربد الوجه واحمراره وثقل البدن ، وهذه هى حـالة الغيبوبة الواعية •

فالوحى اذن ظاهرة روحية كسائر الظواهر الروحية الأخرى وهو طريقة اتصال محمد عليه الصلاة السلام وغيره من الأنبياء بالعالم الأعلى « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » •

والمقصود بالرسول هنا الملك ، وقد وصف جبريل بأنه رسول فى سورة التكوير قال تعالى : « انه لقول رسـول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين » [1] •

٧ ـ النظرية الاسلامية فى الوحى المحمدى :

وقد حاول بعض علماء المسلمين أن يفسروا نـزول الوحى وما ينال الرسول عند نزوله من العناء بما يقرب من ذلك التفسير الذى يقول به بعض علماء الروحية وذلك قبل أن تتبوأ الأبحاث الروحية مكانتها فى الشرق والغرب •

---

(١) نظرية الوحى المحمدى ، للمؤلف ، مجلة عالم الروح عدد اغسطس سنة ١٩٥١ ، ص ١٠ •

يقول الزركشى فى البرهان :

« ان رسول الله انخلع من صورة البشرية الى صورة الملكية وتلقى القرآن من جبريل لأنه كان مستعدا بفطرته السامية ونفسه الصافية وفؤاده اليقظ وعقله الباطن للانسلاخ من البشرية الى الملكية وهى حالة نفسية أعلى من حالة الانسان يدل على وجودها التفاوت المشاهد بين طبقات البشر فى عقولهم وادراكهم فيكون النبى قد ترقى بروحه حتى وصل الى درجة الروح الأمين أو أن الملك انخلع من الملكية الى البشرية حتى أخذه رسول الله » .

وفى كلام محيى الدين بن عربى محاولة طريفة لتعليل الظواهر البدنية التى كانت تبدو على الرسول عند نزول الوحى.

ويقول ابن خلدون عند الكلام عن أصناف النفوس البشرية ما نصه « وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة الى الملكية من الأفق الأعلى ليصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شعور الملأ الأعلى فى أفقه وسماع الكلام النفسانى والخطاب الالهى فى تلك اللمحة وهؤلاء هم الأنبياء جعل الله لهم فى الانسلاخ من البشرية من تلك اللمحة وهى حالة الوحى فطرة قواهم الله عليها ... فهم يتوجهون الى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التى فطروا عليها فتارة يسمع الرسول دويا كأنه رمز من الكلام يؤخذ منه المعنى الذى ألقى اليه فلا ينقضى الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذى يلقى اليه رجلا فيكلمه ويعى ما يقوله والتلقى

من الملك والرجوع الى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كان فى لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر ولذا سميت هذه الأشياء وحيا لأن الوحى فى اللغة الاسراع . وعلامة هذا الصنف من البشر انه يوجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين مع غطيط كأنه اغماء فى رأى العين وفى الحقيقة هو استغراق فى لقاء الملك الروحانى بادراكهم الخارق عن مدارك البشرية بالكلية» الى أن يقول ابن خلدون .

« ومن ذلك تعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يتلقوا الوحى ولا أسرى بهم ولا عرجوا الى الملأ الأعلى .... الا بعد التجرد الفطرى [1] ، والانسلاخ عن اللبوس البشرى والتحقق بمقام العبودية لله عز وجل » .

أما فلاسفة الاسلام والعرب فقد عللوا الوحى تعليلا علميا بقدر ما كانت تسمح به درجة تفكيرهم وما وصل اليه العلم فى زمانهم وهو فى الغالب تعليل منقول عن فلاسفة اليونان ولعل أقربهم الى الحقيقة من حيث التعليل الروحانى للوحى هو الاستاذ المعلم أبو نصر الفارابى [2] .

وقد استمسك ابن سينا بنظرية الفارابى فى النبوة وعنى

---

(١) المطالب القدسية ، الفصل المعقود تحت عنوان « تفاوت النفوس فى الانسلاخ عن البشرية » ، ص ٧٢ .

(٢) محمد لطفى جمعه ، تاريخ فلاسفة الاسلام ، ص ٤٢ ، وما بعدها .

بهـا • ووقف موسى ابن ميمـون فى الجزء الثانى من كتابـه « دلالة الحائرين » نحوا من مائة صفحة على نظرية الفارابى فى النبوة وبذل جهده فى التوفيق بينهـا وبين الديانة الموسـوية •

وترجع الآراء المتعلقة بالنبوة فى نظر موسى بن ميمون الى ثلاثة أقسام :

طائفة ترى أن النبى مجرد شخص اصطفاه الله من بين خلقه وكلفه بمهمة خاصة انما يشترط فيه حسن السلوك وسمو الأخلاق والله أعلم حيث يجعل رسالته• ورأى يذهب الى أن النبـوة تستلزم كمالا فى الطبيعة الانسانية وسموا فى المواهب العقلية والاستعدادات الفطرية فليس لكل شخص اذن أن يكون نبيـا بل من اكتملت فيه صـفات نفسية وعقلية معينة فالنبى انسان كامل من الناحية العقلية فضله الله واصطفاه على عباده الآخرين وبهذا الرأى الأخير أخذ ابن ميمون ، ولابد للنبى من مخيلـة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال وتقفه على الأمور المستقبلة كأنما هى أشياء محسوسة ملموسة • وعلى قدر ما تعظم المخيلة ويزيد اتصالها بالعالم العلوى بقدر ما تسمو الالهامات النبوية وتتنوع ، ومن هنا تفاوت الأنبياء فيما بينهم بتفاوت مخيلاتهم واختلاف ما يوحى اليهم تبعا لذلك • فقوة المخيلة اذن ذات أثر كبير فى الكشف والالهام وشرط أساسى فى كل من يـرقى الى رتبة النبوة ، بيد أنه يجب أن يضم النبى الى مخيلته قوى عقلية عظيمة لأن المخيلة لا تستطيع أن تصعده الى درجة العقل الفعال ان لم يكن فى معونتها قوى فكرية ممتازة وبذلك يكون ابن ميمون قد اعتنق نظرية الفارابى فى النبوة •

وقد قال بهذه النظرية أيضا ألبير لجراند فى القرون الوسطى ويقرر ان الانسان متى وصل الى مرتبة العقل المستفاد ، أصبح على اتصال دائم بالعالم الروحانى وأضحى الى حد ما شبيها بالله ووقف على المعارف المختلفة ، وقد التقى سبينوزا — من فلاسفة المحدثين — مع الفارابى فى نقط كثيرة فهو يرى أن الحقيقة الدينية تعتمد رأسا على الوحى والالهام فاذا تتبعنا الكتب المقدسة جميعها وجدنا ان الالهامات النبوية المختلفة سواء أكانت عبارات صريحة أو صورا رمزية انما تتم بواسطة مخيلة قوية وعلى هذا لا تتطلب النبوة شرطا آخر سوى أن يكون الأنبياء ذوى خيالة نشيطة متنبهة ومن ذلك يتضح أن الفارابى وأسبينوزا متفقان على أن قوة الخيالة شرط أساسى فى النبوة ٠

أما الغزالى فانه يقرر فى كتابه « المنقذ من الضلال » أن النبوة أمر مسلم به نقلا ومقبول عقلا ويكفى لتسليمها من الناحية العقلية أن نلاحظ أنها تشبه ظاهرة نفسية نعترف بها جميعا ألا وهى الاحلام والرؤى « وعبارة الغزالى فى ذلك هى » قد جرب الله ذلك على خلقه أن أعطاهم انموذجا من ناحية النبوة وهو النوم اذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب اما صريحا واما فى كسوة مثال يكشف عنه التعبير » [1] ٠

أما الباطنية من الاشاعرة فقد قالوا ان جبريل هو العقل

---

(١) المنقذ من الضلال ، ص ٢٢ ٠

الذى — يفيض على الأنبياء بالمعلومات وأن القرآن تعبير عن المعارف التى فاضت على النبى عن هذا المصدر (١) .

وقد أشار اخوان الصفاء بذكر قوة المخيلة وبينوا مالها من أثر فى المظاهر النفسية المختلفة وخاصة فى المنامات والأحلام والوحى والالهام (٢) .

هذه عجالة عن آراء فلاسفة العرب فى الوحى المحمدى والنتيجة التى نريد أن نصل اليها من هذا كله هى أن نقرر أن الوحى ظاهرة روحية وأن الرسول كان وسيطا روحيا بين العالم العلوى والعالم الأرضى وان جبريل كان هو الروح المهيمن على الرسول ينفث فى روعه كلام الله . والقرآن سمى جبريل بالروح الأمين والروح القدس فى غير سورة قال تعالى :

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » .

وقال أيضا :

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » .

---

(١) الغزالى ، فضائح الباطنية ، ص ٩ .
(٢) رسائل اخوان الصفاء ، ج ٣ ص ٣٨٥ — ٣٩١ ، ج ٤ ص ١٥٩ — ١٦٥ .

وقال أيضـــا :

« وانه لتنزيل رب العـــالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ••
وقال : « يلقى الروح من أمره » •

٨ ـ النظرية المسيحية فى الوحى :

أما نظرية الوحى عند المسيحية فانها تتصل اتصالا وثيقـــا بنظرة المستشرقين الى وحى القرآن وهى أســـاس الشـــبهات التى يثيرونها حول الوحى المحمدى •

فالوحى عند المسيحيين هو ما قاله بطرس الرسول فى رسالته الثانية «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» (٢ بطرس / ١ : ٢١) •

فمعنى الوحى اذن عندهم هو اظهار الحقـــائق الغير ممكن معرفتها بالقوى الطبيعية ، وأما ما يمكن للعقل أن يصل اليـــه فيسمى « الهاما » • والوحى والالهـــام أمر واحد بالنسبة لله تعالى ، وأمران بالنسبة للعقل البشرى وهما لا يعنيان أن الله لقن الكتبة الذين كتبوا الأسفار المقدسة ما سطروه حرفا حرفا من تعاليم وتواريخ بل انه حركهم للكتابة وأنار عقولهم بالمعرفة وحفظهم من الزلل فاذا قال النصارى ان الأسفار المقدسة هى كلام الله وأسفار الهيه موحى بها من الله أو منزلة من عند الله فانهم لا يريدون ـــ بذلك أن الله تعالى أنزلها آية آية وكلمـــة

كلمة وحرفا حرفا فرقمها الكاتب كما سمعها من فم‌الله أو ملائكته وقيدها بحروفها الأصلية ، ولكنهم يريدون أن الله — عز وجل — اذا ما قصد أن يبلغ البشر شيئا من أسراره حرك كاتبا يختاره فيحثه على كتابة السفر المقصود ثم يمده بنفحته ويلهمه اختيار الحوادث والظروف والأعمال والأقوال التى شاء سبحانه‌وتعالى تبليغها لفائدة عباده وكان له رقيبا وراشدا وعصمه من الخطأ فى نقلها وتسطيرها افرادا واجمالا بحيث لا ينقل الا ما ألهمه الله اياه فيكون الرسول اذ ذاك كاتبا مطيعا فى حوزة الكاتب الأسمى وطوع ارادته •

وتظهر هذه النظرة الى الوحى فى الدين المسيحى واضحة جلية فى مستهل انجيل لوقا حيث جاء فى الاصحاح الأول (١ : ٤) ما نصه : « اذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها الينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة رأيت أنا أيضا اذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى اليك أيها العزيز تاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذى علمت به » •

على أنه ربما كانت بعض الظروف والحوادث مجهولة من الكاتب فلا يصل اليها الا اذا أوحاها الله اليه مباشرة أو تكون معلومة لديه أو مما يستطيع معرفته باستطلاع الاخبار واستفتاء الشهود والتنقيب والاستقراء فلا حاجة عندئذ الى تنزيلها عليه لعدم الفائدة انما يلهمه الله كتابتها ويصونه فى ايرادها عن الضلال وهذا كاف لأن يعزى الكتاب الى الله فيقال « كتاب الله •• والكتاب الموحى به من الله » لأن الله هو المؤلف السامى له

باختيار مواضيعه ومعانيه والهام ناقليها وتحريكهم على كتابتها بالنوع الذى أراده وعصمته اياهم عن الخطأ فى غضون تسطيرها من أولها الى ختامها ، وعمل الله هذا لا يبطل صفات الكاتب الطبيعية من ذكاء وأهلية ومعارف لغوية وفصاحة بديهية ولا يخلقها فيه اذا كان ممن لم يحظ بها لأن الله يختار من يشاء وليس هو بحاجة الى النحاة والبلغاء ليلقى اليهم وحيه ومن ثم لا يستلزم وحى الكتب المقدسة تنزيل الألفاظ وتنسيق التراكيب لكن يقتصر فيه عادة على الحكم والمعانى فينقلها فى قالب فصيح وعبارة صحيحة سيالة وذلك فى تركيب لا يقصد به الا الى ايصال المعانى تامة الى الأذهان ولا يختلف المعنى فى كلا النقلين [1].

وقد جاء فى معجم الكتاب المقدس للدكتور جورج يوسف فى تفسير كلمة وحى « تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب وجاء فى حزقيال ١٢ : ١ » هذا الوحى هو الرئيسى — أى أنه آية للشعب وعلى العموم يراد بالوحى الالهام وعلى ذلك يقال — أن كل الكتاب هو موحى به من الله والوحى بهذا المعنى هو حلول روح الله فى روح الكتاب الملهمين وذلك على أنواع :

(١) افادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل اليها الا به .

(٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة

---

(١) الآب ابراهيم لوقا ، المسيحية فى الاسلام .

والتفوه بها شفاها أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ
فيقال ـــ «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس»

وهنا لايفقد المتكلم أو الكاتب شيئا من شخصيته وانما يؤثر فيه الروح الالهى بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق ارشاده تعالى ولهذا ترى فى كل مؤلف من الكتاب ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وما شابه ذلك ، وفى شرح هذا التعليم دقة وقد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه غير أن جميع المسيحيين يتفقون على أن الله أوحى لأولئك الكتاب ليدونوا ارادته ويفيدوا الانسان بمـــا يجب عليه من الايمـــان والعمل لكى ينال الخلاص الأبدى •

وجاء فى معجم لاروس فى تفسير كلمة inoperation ص ٥٣٧ ما نصه : « حقيقته فعل يدخل به الهواء فى الرئتين (شهيق) ومجازا نصيحة أو ايحاء أو حالة نفسية يوجد عليها الروح عندما يكون مبـــاشرة تحت تأثير قوة فوق الطبيعيـــة كوحى موسى والأنبيـــاء » •

هذه هى نظرية الوحى عند المسيحيين وهى كما نرى تختلف كل الاختلاف عن نظرية الوحى عند المسلمين •

ـ الوحى فى أسفار العهد القديم :

أما نظرية الوحى عند اليهود فكثير من أسفار العهد القـــديم تعبر عن الوحى « بكلام الرب » وقد تعبر بلفظة « الوحى » عن

الرؤيا » أنظر على سبيل المثال سفر التكوين اصحاح ٦/١٣ ــ ٢٣ • واصحاح ٧/٣ ــ ٥ واصحاح ١٢/١ ــ ٤ » •

كذلك أنظر سفر الخروج اصحاح ٣/٥ ــ ٦ والاصحاح ٢٠/١ــ١٦ والاصحاح ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، وسفر اللاويين اصحاح ١ ــ ٨ ، اصحاح ١١ ــ ٢٧) •

وتبدأ بعض هذه الاصحاحات بهذه الجملة :

« وكلم الرب موسى قائلا » ــ كذلك جاء فى سفر يسوع وسفر صموئيل الأول حيث جاء فى الاصحاح ٢/٣٧ ما يأتى :

« وجاء رجل الله الى عالى وقال له : هكذا يقول الر ب» وجاء فى سفر عزرا ما يأتى « •• عند تمام كلام الرب فهم أرميا » (اصحاح ١/١) وجاء فى سفر أيوب اصحاح ١٥/١٧ » أوحى اليك اسمع لى « وجاء فى سفر أشعيا اصحاح ١/٢ » اسمعى أيتها السماوات واصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم وجاء فى سفر أرميا اصحاح ١/١ ما نصه : كلام أرميا •• الذى كانت كلمة الرب اليه ••

وتبدأ بعض اصحاحات هذا السفر بهذه العبارة :

« وصارت الى كلمة الرب قائلا •• » (اصحاح ٢) أو بهذه العبارة « الكلمة التى صارت الى أرميا من قبل الرب قائلا •• » (اصحاح ٧) •

وجاء فى سفر حزقيال « ان السموات انفتحت فرأيت رؤى الله .. صار كلام الرب الى حزقيال .. »

وتبدأ معظم اصحاحات هذا السفر بهذه الجملة :

« وكان الى كلام الرب قائلا » . ويبدأ سفر هوشع بهذه العبارة « قول الرب الذى صار الى هوشع » وكذلك سفر يوئيل وعاموس ويونان وميخا وصفنيا وحجى وزكريا ، ويبدأ سفر ناحوم بهذه الجملة « وحى على نينوى » كما يبدأ سفر حبقوق كما يأتى :

« الوحى الذى رآه حبقوق النبى » ويبدأ سفر ملاخى كما يأتى :

« وحى كلمة الرب لاسرائيل عن يد ملاخى » .

ومما سبق يتضح أن أنبياء بنى اسرائيل كانوا يتلقون الكلام الالهى أما مباشرة عن الله سبحانه وتعالى واما عن طريق « رجل الرب » ـ وأما طن طريق الرؤيا وفى هذا تختلف أيضا نظرية الوحى المحمدى عن نظرية الوحى فى أسفار العهد القديم .

١٠ ـ شبهات المستشرقين حول الوحى :

بعد أن عرضنا للنظرية الاسلامية والنظرية المسيحية فى الوحى يجدر بنا أن نشير الى بعض شبهات علماء الاستشراق حول الوحى المحمدى .

ولعل أول شبهة تلك التي زعم فيها بعض المستشرقين أن النبى قد أخذ وتلقى عن ورقة بن نوفل لأن ورقة كان يقرأ الانجيل ومن أهل الكتاب كما زعموا أنه عليه الصلاة والسلام تلقى من بحيرا الراهب السنطورى وعن حداد رومى فى أحد شوارع مكة وعن غيره من اليهود والنصارى من رواد الحانات وحوانيت النبيذ ..

هكذا يقول مرجليوث ومن جرى مجراه من علماء الاستشراق أمثال درمنجهيم وديبيل ومايو ..

ومع أن مثل هذه النزهات والخيالات السقيمة لا تحتاج الى رد وتفنيد لأنها أسخف من ان يرد عليها الا أننا نعرض لها لنبين الى أى مدى بلغ الحقد والتعصب بهؤلاء القوم .

يقول مرجليوث : مما لا شك فيه أن النبى لم يتلق أى تعليم وان قل ومن المؤكد أنه لم يتعلم فى طفولته القراءة والكتابة وان كانت القراءة والكتابة معروفتين فى مكة لحاجة التجارة اليها وقد اعترف محمد بأن يتمه من والديه وجده كان سببا فى اهمال تعليمه ، ذلك كان معدوم الاذن للشعر أى فاقد موهبة الأوزان والنظم ومن هنا كان محروما من الحفظ عن ظهر قلب الذى تعودته العرب فى النثر والشعر » ..

كذلك ينفى مرجلوث عن النبى علمه بزراد شت كما استبعد اتصال العرب بنكونفشيوس وبورنا ...

ولم يبق أمام هذا المستشرق من جاراه الا النصارى واليهود

فذكروا ورقة بن نوفل وبحيرى الراهب وعداس وقس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت كما ذكروا حدادا روميا كان النبى يراه فى السوق يصنع السيوف ـ فيقف ليرى صنعته ...

فهؤلاء اذن فى نظر مرجليوث هم مصدر الأخبار وكنز تاريخ الأديان ومدنيتها ، أطلعوا محمدا على دفائنهم وفتحوا له دون سواه من أهل مكة اغلاق خزائنهم فاغترف من بحور علمهم ما اغترف وأخفى من أسماء معلميه من أخفى واعترف بمن شاء أن يعترف ..

يقول لطفى جمعه فى كتابه ثورة الاسلام « كيف لا نضحك ولا نزدرى وهذا الرجل (يعنى مرجليوث) الذى يعيش فى القرن العشرين فى ظل حضارة من أعظم الحضارات يتوهم أن مكة فى القرن السابع المسيحى كانت تضارع لندن بعد ثلاثة عشر قرنا بل تفوق عليها مذ كان رواد مقاهيها ورواد حاناتها يصلحون لتعليم الأنبياء وتخريج الرسل .

وهذه لندن وباريس وروما بكل ما فيها من المعاهد والجامعات والمقاهى والأندية وتجار اليهود والهنود لم تخرج نبيا واحدا ولم نعلم أن رجلا ألف كتابا أو نظم ديوانا مواده ولبابه وصاغ قوالبه وأبدع بيانه على مناضد المقاهى أو فى زوايا الحانات اللهم الا أن يكون ناظما مفلوكا أو مدمنا هلوكا لا يغنى انتاجه ولا يسمن،وحتى هؤلاء المفاليك المهاليك أمثال الفريد دى موسيه وبول فرلين وأرثور ريمبو كانوا مثقفين معروفين بلون من النبوغ وميل الى الأدب وانطباع على النظم والنثر وكانت لهم بيوت وكتب

وأنصار ومريدون ومحبذون فاتخذوا من سمر المقاهى والحانات محرضا على شهوة الشعر واستحثوا بالخمر والتخدير قرائحهم الراكدة وأذهانهم الراقدة وألهبوا بسياط المرئيات ظهور جياد الخيال وأشعلوا بنيران الشهوات كوامن المواهب العليلة كمن يحرق أجزاء سفينته ليبلغ مرفأ النجاة ولم يكن محمد أحدا من هؤلاء ولم تهيئوه الطبيعة لهذا النوع من الحياة وليس بين حديثه وبين هذه المخزيات المحكية على لسان مرجليوث صلة أو رابطة أو شبه[1] .

وهل اذا كان محمد التقط والتقف وانتحل واقتبس من النصارى واليهود وهم طبقة الراحلين والنازحين فى شوارع مكة كان يمكنه أن ينظم تلك الجواهر فى عقود مع انطباقها على الحق مرة والواقع باقرار احبار اليهود وقساوسة النصارى فلم يخطىء ولم ينس ولم يحذف ولم يزد ولم ينقص ولم ينقح كلمة ولا حرفا . لابد أن هؤلاء المسافرين والحدادين وأضياف الحانات كانوا أنبياء أو على الأقل ملائكة ..

ان العلماء الذين يدونون علومهم بلغاتهم فى أوطانهم بعد اتقانها يخطئون ، ومؤلفو دوائر المعارف والمعلمات يسهون ويقدمون ويؤخرون ويجعلون مسارد لتصويب الأخطاء وينقحون المطبوعة تلو المطبوعة ويجادلون الناقدين فكيف لهذا الرجل أن لا يخطىء ولا يحتاج لتصحيح فكرة أو واقعة أو برهان « أفلا

---

(١) محمد لطفى جمعه ، المرجع السابق ، ص ٤١١ .

يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ؟ »

ومع ذلك كله ولذلك كله فاننا نعرض لمزاعم هؤلاء المستشرقين فيما ذهبوا اليه من أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد أفاد من حله وترحاله فى صحبة عمه وصحبة ميسرة رفيق زوجته وما زعموه من مخالطته لليهود والنصارى والمتألهين والكهان والرهبان والفرس واليونان •

١١ ــ عداس :

وأول هؤلاء عداس ، وقد كان كاهنا نصرانيا كبير السن من نينوى وكان عنده علم من الكتاب وكان مقيما بمكة لأنه كان مولى لعتبة بن ربيعة ولم يكن محمد عليه السلام يعرفه ولكن خديجة عرفته بسبب تجارتها وتذكر كتب السيرة ، انه على أثر نزول الوحى على النبى ــ أرسلت خديجة رسولا اليه ــ يسأله عن جبريل ولم يكن اسم جبريل معروفا فى بلاد العرب فقال الشيخ للرسول : قدوس ! قدوس ! وما لجبريل يذكر فى هذه الأرض التى تعبد فيها الأوثان ان جبريل أمين الله بينه وبين رسله •

وعاد الرسول الى خديجة وأخبرها الخبر فرأت أن تزداد استفسارا بزيارته فى سبيل هذا الأمر الجليل الذى شعرت بخطورته وعظيم شأنه بقلبها الناضج وفكرتها الراجحة •

فذهبت الى عداس وأعادت عليه ما سمعت من زوجها من أمر

الوحى فقال لها : ــ سبوح ! سبوح ! يا خــديجة هــذه بشرى كبيرة وخبر جليل ان كان هذا الذى تجلى له هو الملك •

وعادت الى منزلها فاذا هى بمحمد صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من القرآن فلما سمعت قراءته اهتزت فرحا وقالت له :

ــ فداك أبى وأمى امض •• ، معى الى عداس •

فلما رآه عداس ــ كشف عن ظهره فاذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه فلما نظر عداس اليه خر ساجدا وقال :

ــ قدوس قدوس أنت والله النبى الذى بشر بك موسى وعيسى

وقد ذكر درمنجهام خاتم النبوة فى ترجمته لحياة الرسول وقال ان عداس قبله وبكى •

١٢ ــ ورقة بن نوفل :

وعندئذ عزمت خديجة على أن تلجأ الى قريبها ورقة بن نوفل وكان شيخا كبيرا وقريبا من الموت وهو الآخر هجر عبادة الأصنام وتنصر وكان يكتب الكتاب فقالت له خديجة :

ــ يا ابن عم اسمع من ابن أخيك •

توقيرا لسن ورقة واستعطافا للرحم •

فقال ورقة لمحمد

ــ يا ابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره الرسول بخبر ما رأى •

فقال ورقة :

ــ هذا الناموس الذى نزله الله على موسى ! يا ليتنى فيهـا جذعا •• ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك •

فقال النبى :

ــ أومخرجى هم ؟

قال ورقـة ·

ــ نعم لم يأت رجل بمثل ماجئت به الا عودى وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا •

ثم لم ينشب ورقة أن توف وفتر الوحى •

هذا هو الحديث الصحيح الذى رواه عبد الله بن يوسف عن مالك بن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى حديث الحارث بن هشام عندما سأل رسول الاله عن الوحى •

وليس فيما بين أيدينا من المراجع والمصـادر ما يدل على أن محمدا لقى ورقة بن نوفل قبل هذه المرة أو بعدها •

فهل يصح مع ذلك ما زعمه المستشرقون من أن الرسول قـد أخذ عن عداس أو عن ورقة ؟

الثابت أن ورقة لقى النبى قبل البعثة وليس لدينا ما يدل على

أنه آمن به ولكنه وعده بالايمان وعلق المناصرة والمؤازرة على شرط خروج محمد من مكة مهاجرا بفعل قريش وهذا الشرط لم يتحقق الا بعد نزول الوحى بثلاث عشر سنة •

وحديث عائشة يقول : ان ورقة لم ينشب أن مات أى أنه مات بعد ذلك بسرعة أى لم يلبث أن مات •

يقول السبط بن الجوزى : « ان ورقة آخر من مات فى الفترة ودفن بالحجون فلم يكن مسلما » وقال ابن عباس « ان ورقة مات على نصرانيته لأن من ادرك النبوة وصدق بها ولم يدرك الرسالة بناء على تأخرها لايكون مسلما بل يكون من أهل الفترة»

وهذا يؤكد فساد مزاعم هؤلاء المستشرقين •

١٢ ـ الراهب النسطورى :

أما بحيرى الراهب ـ الذى زعم المستشرقون أيضا أن النبى أخذ عنه وتلقى منه ـ فقد كان ناسكا بمدينة بصرى بالشام وكان نسطوريا من أتباع آريوس فى التوحيد وكان ينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث وقد زعم بعضهم أنه كان معلما لمحمد ومصاحبا له بعد رسالته هذا افتراء بين ، لأن بحيرى ان صح ما جاء بكتب السيرة لم ير النبى الا وهو ابن تسع أو اثنى عشر عاما وكان فى صحبة عمه ولم يكن عمه يتركه طرفه عين حرصا عليه وخوفا على حياته •

وقد ذكر رواة السيرة ان بحيرى بشر بالنبى لما رآه مع عمه

وقال : وجهه وجه نبى وعينــه عين نبى يبعث لهذه الأمــة الأخيرة !!

كان جواب أبى طالب على تلك البشرى أن قال للراهب :

ــ سبحان الله ! الله أجل مما تقول •
أى أنه قادر على أن يصنع من ابن أخى هذا نبيا •

ثم التفت أبو طالب الى الصبى وقال :

ــ يابن أخى ألا تسمع ما يقول :

فقال محمد :

ــ أى عم ! لا تنكر لله قدرة !!

المهم أن بحيرى عند بعثة النبى كان قد مات من زمن طويل ولم تكن له صلة بالرسول الذى مضى على لقائه ــ ان صح هذا اللقاء ــ ثلاثون عاما ، ولعل منشأ ما يزعمه هؤلاء المستشرقون عن تلقى النبى عن ذلك الراهب النسطورى ــ هو ولوع مؤلفى العرب القدماء بالنقل وعدم فحص النصوص والروايات وغربلتها قبل تدوينها •

فصاحب السيرة الجلية يقول : « ان خديجة كتبت الى بحيرى تستفتيه فى الوحى فأجابها بكتاب عنوانه « سيدة قــريش ! اعلمى أن الوحى ••• الخ » •

وهذا يســتلزم بالطبع أن يكون بحيرى على قيد الحياة عند البعثة وأن العلاقات كانت مستمرة بينه وبين النبى حتى عرفت

زوجته خديجة عنوان الراهب وخاطبته فى شأن جبريل فى حين أن بحيرا كما ذكرنا كان قد مات منذ زمن طويل •

وصاحب السيرة الحلبية يذكر هذه الرواية بغير سـند وهى بلا ريب مدسوسة ولكنه نقلها لأن فيها ما يشعر بتأييد النبوة والتبشير بمحمد ، ولم يكن هذا المؤرخ الفاضل ليعلم ما يخبئه القدر لتاريخ الرسول من عفاريت الانس الذين يصطادون فى المـاء العكر وما هذا المـاء العكر الا تلك السير التى اختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب والمعتدل بغير المعتـدل والغث بالسمين ، ويؤيدنا فى رأينا فى قصة بحيرا ـ الشيخ رشيد رضا فى كتابه الوحى المحمدى اذ يقول : ان الروايات الخاصة ببحيرا ضعيفة الاسناد الا رواية الترمذى وليس فيها اسم بحيرا وفيها خلط فى المتن وليس فى شىء منها أن محمدا سمع من بحيرا شيئا عن عقيدته أو دينه •

١٤ ـ أسقف نجـران :

كذلك ذكر الافرنج من كتاب السيرة قس بن ساعدة الأيادى وأمية بن أبى الصلت •

أما قس وكان أسقفا لنجران فقد مات قبل بعثة النبى وكان النبى قد سمعه يخطب فى عكاظ على جمل أورق ولم يع من كلامه الا ألفاظ مبهمة •

ويهمنا أن نذكر فى هذا الصدد أن الجارود بن عبد الله لمـا

وفد فى وفد عبد القيس فسأله الرسول يا جارود هل فى جماعة عبد القيسى من يعرف لنـــا قسا ؟ قالوا : كلنا نعرفه وسأل مرة أخرى : ما فعـــل قس بن ســـاعدة الأيادى ؟ قالوا : انه مات يا رسول الله • وفى مرة ثالثة سأل : ألكم علم بقس بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسول الله •

١٥ ــ أمية بن أبى الصلت :

أما أمية بن أبى الصلت فقد كان شـــاعرا كبيرا وكان أشعر ثقيف وكان متزهدا ولبس المسوح وطمع فى النبوة ورجـــا أن يكون هو النبى المنتظر فلما بعث الرســـول حسده أمية ورثى قتلى بدر من قريش وحزن عليهم ثم شـــق ثوبه وجدع أنف ناقته أسفا على خيبة أمله لأنه رأى فى انتصار بدر نجاح محمد ثم هاجر الى الطائف هو وابنته غضبا وغيظا ومات هناك •

وكذلك لمـــح بعض المستشرقين الى قين رومى أى حـــــداد كان فى مكة وادعوا أنه كان يعلم محمدا تقليدا لمـــا زعمه بعض العرب أيام النبى ، ومن المضحك ألا يجـــد النبى معلما الا فى شخص هذا الحداد ، ولعل محمدا كان يراه فى الســـوق فيقف عليه ليرى صـــنعته ولم يكن يفقه لغته ولا يمكنهما التفـــاهم ولذا جـــاء فى القرآن « لســـان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لســـان عربى مبين » •

١٦ ــ الابو كريف والهاجاداة :

على أن بعض المستشرقين عندمـــا لم يجدوا شخصا يليق فى مكة بأن يكون أستاذا لمحمد لأن مكة كان بها يهود ونصارى من طبقة العبيد والرقيق لســـادتهم العرب ، لأن رؤساء قريش لم

يكونوا يسمحون لأحد من ذوى الشأن من النصارى أو اليهود أن يقيموا فى مكة وهى حرمهم المقدس الخاص بأوثانهم وان كانوا يتساهلون مع خدمهم وعبيدهم لأنهم فى حاجـة اليهم ، وهؤلاء كانوا من طبقة نازلة وكلهم جهلاء ولا يتصور أن محمدا يتنزل أو يتدلى اليهم ليتتلمذ لهم أو يتلقى عنهم رسالة — نقول ان هؤلاء النقاد والمؤرخين من الافرنج عندما استبعدوا تلقى محمد عن نصارى مكة ويهودها وحاروا فى تعليـل ما جاء فى القرآن من قصص الرسل،زعموا أنه استقى مصادره من التوراة والانجيل ومن الهاجاداة والابوكريفا والمشناة والتلمود !! [1]

ومما لا شك فيه أن هذه فرية لا دليل عليها ولا سند لها ، فمن المسلم به من الجميع أن محمدا كان أميا وأن قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم ومبادىء التشريع وعلوم الفلسـفة وأن مكة عاصـمة دولتهم وقاعدة دينهم ومقر كعبتهم ومثوى زعمائهم ورؤسائهم وملتقى الشعوب والقبائل للتجارة والحج والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة والشعر والخطب لم يكن بها مدرسة ولا مكتب ولم يوجد بها كتاب مخطوط .

ولو أن محمدا أراد أن يتعلم التوراة والانجيل كما زعموا — ليتخذ منهما مادة للقرآن لبادر الى ذلك منذ صغره بعد لقـاء بحيرا المزعوم أو بعد زواجـه مباشرة وهو فى عنفـوانـه أو

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مادة Mohammedanism الفصل المعقود عن القرآن ، ج ١٦ ص ٦٠٠ .

لاغترب فى طلب اللغات وأسرار العلوم كما فعل غيره ولا غبار على نبوتهم ولكنه آقام فى بلده وعرف عند أهـــله كمـــا يعرفون أبنـــاءهم •

وقد قدم لنا الناقدون من علماء الاستشراق أدلة على كذب دعوى الانتحال أو النقل عن التوراة فقال مرجليوث « لم يتلق النبى شيئا من التـــوراة عن أحد لأن بعض أســـماء الأنبيـــاء العبرانيين التى وردت فى القرآن مغلوط فجاء طالوت بدلا من شاول وجالوت فكان جوليات وكذلك اســـم جيديون » ويجزم مرجليوث بعدم الملقن لمحمد لأنه لا يوجد مسيحى أو يهودى يخطىء فى أسماء أشخاص التوراة هذا الخطأ الجسيم •

ثم اننا نتســـاءل ما حاجة القـــرآن الى النقل من التـــوراة والانجيل وهذه القصص القديمة لا يقصد بها الى سرد التاريخ ولكن يقصد بها الى التـــأسى وتدعيم النبوات والرســـالات السابقة وانسجام البعثة المحمدية وسالفاتها والمقصد الأكبـــر للدعوة المحمدية عقيدة التوحيد وتحويل الأذهان من الشرك الى الوحدة ومن حصر الذهن فى الصغائر الى كبار الأمور والنظر فى جلال الخليقة وتوجيه النفوس الى الروحيـــات والمعقولات واصـــلاح الأخلاق وتقويم اعوجاج المجتمع [1] •

أما ما زعم هؤلاء المتخرصون بأن القرآن اقتبس من الهاجادة ـــ (Haggada) أحـــد كتب اليهود المحشـــوة بالأساطير فهـــو

---

(١) محمد لطفى جمعه ، ثورة الاسلام ، ص ٥٤٧ ، ٦٤٨ •

زعم مضحك لأن الهاجادة ليس كتابا منزلا ولكنه مجموعه أخبار وقصص وقواعد كثيرة منها خيالى عن التوراة والتقاليد اليهودية وفيه تحوير للتاريخ اليهودى والعقائد الدينية فضلا عن أن هذا النظام أو هذه المجموعة أو هذه الأساطير سمها كما شئت أن تسميها لم تكن مكتوبة ولامعروفة للعرب ولا لبيئةمحمد فان الأخذ عنها يعد فى حكم المستحيل لأن الذى يريد أن يصنع دينا أعلى من الأديان السابقة وكتابا أرقى وأصدق من الكتب المسلم بصدقها لا يعقل أن يرجع فى ذلك أو يعتمد على أضعف الروايات التى لا يمكن أن تكون مرجعا وهو فى الوقت نفسه يعرض عن التوراة والانجيل وهما بين أيدى اليهود والنصارى ويخاطب اليهود والنصارى ومنهم كثير فى مكة والمدينة ونجران واليمن وسائر بلاد العرب والشرق وفيهم الأحبار والقسس والعلماء .

أما المصدر الآخر الذى زعموه وهو الابوكريف Apocrypha فهو عبارة عن ستة عشر كتابا من تأليف اليهود بعد ختام الشريعة العبرية ليس له صبغة دينية ولا روح كلام أنبياء بنى اسرائيل الا أنه ينطوى على بعض الحكم التى سببها مخافة الله واتباع شريعته وكلمة أبو كريف نفسها معناها الكلام المستور أو الكتابة المخفية لتمييزها عن كتاب الشريعة وقد جمع هذه الأشياء كتاب اليهود فىالقرن الثانىقبل الميلادونسبوهاكذبا الى الاسرائيليين يتكهنون فيها بحكم الله على الأمم وبخلاصها فى النهاية على يد المسيح .

فاذا كان القرآن يكذب التوراة والانجيل وهما الكتب المعتبرة

فى زمنه عند أحبار اليهود وعلمائهم فهل يعقل أنه يتركها ويلجأ الى الابوكريف التى معناها الكتب الدينية المشكوك فى صحتها بتسليم الجميع [1] .

وعلى كل حال فان جميع الناقدين والمعترضين يسلمون بحقيقتين لا شك فيهما : الأولى أن محمدا لم يرجع الى نص مكتوب ، والثانية أنه قبل القرآن لم يكن هنالك شىء اسمه كتاب فهو أول كتاب عرفه العرب . والآيات على ذلك فى القرآن نفسه كثيرة وقد أشار المستشرق كرنتكو فى بحثه عن لفظ كتاب فى دائرة المعارف الاسلامية الى أنها من الألفاظ الدينية الآرامية والسريانية والعبرية استعملها العرب من أثر الجوار مع اليهود وسواهم من أصحاب الملل [2] .

١٧ ــ اعتراف المستشرقين بوحى القرآن :

ومع ذلك فان هناك من المستشرقين علماء فضلاء قامت الأدلة على صدقهم واجتهادهم ووقفوا أعمارهم وذكاءهم وأموالهم على خدمة الاسلام أمثال جولد زيهر العالم النمسوى ونولدكه المستشرق الألمانى وجرمه الألمانى ولوى ما سينيون الفرنسى ، وقد اعترفوا وأقروا بصدق الوحى فقال : ما سينيون فى ذلك « مهما يتقول المتقولون ويزعم الزاعمون ويدعى المدعون فان محمدا لم يصطنع القرآن » .

---

(١) محمد لطفى جمعه ، فى رحاب القرآن ، تحت الطبع .
(٢) كرتكو ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة الكتاب ، ج ٢ ص ١١٠٤ وبلاشير المدخل الى القرآن ، ص ٥ .

على أن مرجليوث نفسه وهو من غلاة الناقدين للنبى يتكلم كما لو كان فى فمه ماء ، يريد أن يعترف بالوحى والنبوة والرسالة اعترافا صريحا ويقدم لذلك المقدمات ويؤدى بالحقائق والوقائع التى تقود القارىء الى هذه النتيجة ولكنه يعود فيتذكر أنه ان لم يكن فى صف خصوم النبى ومنكرى وحيه فهو على الأقل على الحياد ، فيعطينا مواد البحث ويرتعد عند الاستنتاج ولكن الذى يقرأ الفصل الثانى من كتابه ولا سيما من ص ٧١ الى ٨٢ ويحكم بانصاف ـ لا يسعه الا الاعتقاد بتسليم مرجليوث بصدق الوحى •

ويقول الاستاذ ادوارد مونيه مدرس اللغات الشرقية فى جامعة جنيف فى مقدمة ترجمته للقرآن « لقد كان محمد نبيا صادقا كما كان أنبياء بنى اسرائيل فى القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فى أولئك الأنبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الالهام النفسى وهذا التضاعف فى الشخصية اللذين يحدثان فى العقل البشرى المرائى والتجليات والوحى والأحوال الروحية التى من بابها » •

ويقول كارليل الفيلسوف الانجليزى « لم يكن محمد حقيقة بالرجل المتكلف الذى يروج لأغراضه ويتذرع الى رغباته بالباطل وما الرسالة التى أداها الا حق وما كلماته الا صوت منبعث من العالم المجهول وما هى بالملفقة ولا الكاذبة •• ان محمدا أصدق الأنبياء فى اعتقادى » •

١٨ ــ شبهات حول السور المكية والسور المدنية :

ومما يتصل بمزاعم المستشرقين حول وحى القرآن ما زعمه بعضهم من أن أسلوب القرآن يختلف بين القوة والضعف بسبب نزول بعضه فى مكة والبعض الآخر فى المدينة ، وهم يرمون من وراء ذلك الى أن السور المدنية أقوى من السور المكية لأنهـا جاءت فى الفتـرة الأخيرة من حياة النبى وأن تغاير الأسلوب القرآنى بين مكة والمدينة انما كان تبعا لشخصية النبى ، وقد لاحظ بوهل Buhl أن اسم الرحمن ليس له ذكر فى السور المدنية وانما هو من خصائص التنزيل المكى .

وحقيقة الأمر فيما يتعلق بالفرق بين السور المكية والسـور المدنية هو أن الأخيرة تنطوى على كثير من التشريع الذى أراده الله للمجتمع الانسـانى بعد اتصاله عليه الصـلاة والسلام بالأنصار ومحاوراته لليهود وبعد أن استتب الأمر للرسـول ، فخطاب أهل المدينة لا يمكن أن يكون مماثلا لخطاب أهل مكة ، لأن البيئة الجديدة فى المدينة أصبحت تستدعى التفصيل فى التشريع وفى بناء المجتمع الجديد ، فكان لابد أن يطنب القرآن بعد الايجاز ويفصـل بعد الاجمـال ويراعى حال المخـاطبين فى كل آية وسورة وهـذا ليس معناه أن السور المـكية خالية من التشريع فان الذى فيها أكثر ولكن المسائل التاريخية والحث على التأمل فى خلق الكون والحكمة الالهية والانسانية متغلبة على التشريع فى السور المكية كذلك الأسلوب الخطابى والاقناع من أقرب الطرق وهو المشـاهدة والتخويف من الوعيـد ووصف المجتمع الانسانى القديم وطبيعة البشر وأحوال الجاهلية كثيرة فى المكيات ، كذلك كان فى مكة قوم طغاة معاندون يضطهدون

رسول الله ويضطهدون المؤمنين ولهذا كثر فى مكة نزول الآيات التى تقرع المشركين وتشتد فى تسفيه أحلامهم وتسلى الرسول والمؤمنين وتعلمهم السماحة والصفح الجميل [1] .

ومع ذلك كله فانه لايمكن بحال من الأحوال المفاضلة بين بعض سور القرآن فجميعها نابع من معين واحد ، موحى به من مصدر واحد ولكن هؤلاء المستشرقين يتكلمون دائما على اعتبار أن للنبى دخلا فى تكوين القرآن .

أما زعم بوهل الذى أشرنا اليه فيكفى ردا عليــه أن نذكر أن سورة « الرحمن » مدنية عند من ذهب الى أنها مدنية ، وأوضح من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة وهى مدنية بلا خلاف « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » .

كذلك زعم بعض المستشرقين أن القرآن سكت فى مكة عن ذكر اسم ملك الحى ثم ذكره فى المدينة مرتين باســمه الصريح « جبريل » وهم يلوحون بذلك الى أثر يهود المدينة فى تعريف النبى بهذه الحقيقة الدينية كأن كل الأوصاف القرآنية المبكرة لملك الوحى فى الفترة المكية الأولى لم تشف غليلهم وكأنها تباين الأوصاف التى خلعت فى الكتاب المقدس على ملك الحى ، ولو أنصفوا لاعترفوا بأن هذه الصفات الواضــحة الصريحة لا تصدق الا على جبريل ولم يرتابوا فى أن سرد هذه الصفات أبلغ بيانا من ذكر الأسماء وتحديد الذات وأدعى الى تعريف الأميين بشىء من حقائق الوحى بالتدرج [2] .

---

(١) دكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ .
(٢) دكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٦٨٨ .

كذلك مما يتصل بأسلوب القرآن ــ ما زعمه واضعو دائرة المعارف البريطانية [1] • من أنه يؤخذ على القرآن السجع الذى فيه تقليد لسجع الكهان الأقدمين فى جزيرة العرب وهذه خرافة وفرية لا تستحق الالتفــات منــا لأن سجع الــكهان لا يزال محفوظا فى الكتب سواء كانوا رجالا أم نساء ، وأسجاع القرآن ماثلة لنــا بين دفتى هذا الكتاب والمقارنة المجردة بين النوعين من السجع تقضى على هذا الزعم وتلك الفرية المضحكة ، فضلا عن أنه ليس فى أسجاع القرآن ما يمل أو ما يحرف المعنى أو ما يقود المنشىء رغم أنفه الى تغيير السياق وهذه هى الشوائب والمــآخذ التى تنسب الى السجع فتعيبه •

ومع ذلك فان الذى يأخذه هؤلاء الناقدون الحاقدون لا يعدو ثلاث كلمات أو أربعا خرج بها السجع عن أصلها «فطور سينين» كان يجب أن تكون طور سيناء ولكنها جاءت هكذا اكراما للتين والزيتون « والياسين » جاءت بدل الياس ، وحملة العرش قال القرآن أنهم ثمانية لمناسبة السجع فى الآية السابقة كذلك تحدث القرآن فى سورة الرحمن عن جنتين لكل منهما عينان ونوعان من الفاكهة وذلك فى قوله تعــالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان • فبأى آلاء ربــكما تكذبان • ذواتا أفنان • فبأى آلاء ربــكما تكذبان • فيهما عينــان تجريان • فبأى آلاء ربكما تكذبان • فيهما من كل فاكهة زوجان » •

وذلك كله حتى يتسق مقطع الألف والنون مع سائر الآيات

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج ١٦ ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ •

الواردة بتلك السورة حفاظا على النغم والسجع الذى تألفه اذن العربى •

وبطبيعة الحال فاننا فى غنى عن الرد على مثل هذه الترهات ويكفينا أن نذكر أن رقم ثمانية الذى تحدد به عدد الملائكة الذين يحملون العرش ــ سواء كان ذلك حقيقة أم مجازا ــ قد ذكر فى أماكن متعددة من القرآن وجاء فى سورة الكهف « وثامنهم كلبهم » وجاء فى سورة القصص «على أن تأجرنى ثمانى حجج» وجاء فى سورة الأنعام « ثمانية أزواج من الضأن » وجاء فى سورة الزمر « من الأنعام ثمانية أزواج » وجاء فى سورة الحاقة التى ورد فيها ذكر الملائكة الثمانية قوله سبحانه وتعالى « ثمانية أيام حسوما » • ولنا أن نتساءل فى أى مناسبة من مناسبات السجع ذكر هذا الرقم فى القرآن ست مرات •

ومع هذا كله فان هؤلاء الناقدين يسلمون بأن القرآن ببلاغته واعجازه يؤثر تأثيرا عظيما حتى فى ذهن من لم يؤمن به [1] •

١٩ ــ أدلة على صدق وحى القرآن :

لعله أن يكون من نافلة القول أن نقرر بعد ذلك أن القرآن فى حاجة الى التدليل على أنه وحى من عند الله سبحانه وتعالى نزل به جبريل على قلب الرسول فوعاه وتلاه على الناس كما أوحى اليه ، ولكننا مع ذلك نعرض فى هذا الباب الى بعض الأدلة على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام فى كل ما أخبر به عن وحى القرآن •

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج ١٦ ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ •

٢٠ ــ فتــور الوحى :

ومن هذه الأدلة التى يسوقها بعض الدارسين انقطاع الوحى وفتوره مع شدة شوق الرسول اليه ، ذلك أنه بعد أن نزل جبريل على النبى بأوائل سورة العلق فتر الوحى ثلاث سنين فحزن النبى كما قالت السيدة عائشة حزنا غدا منه مرارا كى يتردى من رءوس شواهق الجبال فكان كلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى نفسه منه تبدى له جبريل فقال :

ــ يامحمد !! أنت رسول الله حقا .

فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه .

ثم حدث بينا هو ماش ذات يوم اذ سمع صوتا من السماء فرفع بصره فاذا الملك الذى جاءه بحراء فرعب منه فرجع الى زوجته خديجة يقول :

ــ زملونى ! زملونى !

فأنزل الله « يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر » .

ثم حمى الوحى وتتابع . واستبشر النبى وتبــدل انتظاره فرحة غامرة وأيقن أن هذا الوحى الذى استعصى عليه ولم يواته طوع ارادته مستقل عن ذاته خارج عن فكره فاستقر فى ضميره الواعى أن مصدر هذا الوحى هو الله علام الغيوب .

كذلك أبطأ الوحى شهرا كاملا بعد حديث الافك « الذى رمى

به المنافقون فى المدينة بنت الصديق الطاهرة المطهرة وأثاروا حولها الأقاويل حتى عصفت الريبة بقلب الرسول فقال لزوجه أم المؤمنين :

ــ ياعائشة أما أنه بلغنى كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت لمت بذنب فاستغفرى الله .

يقول الدكتور صبحى الصالح فى كتابه «مباحث فى علوم القرآن» « من ذا الذى لا يدرك أن هذا الشهر الذى تصرم على الحادثة من غير أن يتلقى النبى خلاله وحيا كان أثقل عليه من سنين طويلة بعد أن خاض المنافقون فى الصديقة المطهرة خوضا باطلا ؟ . فما بال النبى الذى كان فريسة للشك والقلق يظل شهرا كاملا صامتا ينتظر واجما يتربص حتى نزلت آيات النور تبرىء أم المؤمنين ؟ وماله لايسرع الى التدخل فى أمر السماء فيرتدى مسوح الرهبان ويهيىء الاسجاع ويطلق البخور ويبرىء الصديقة من قذف القاذفين ؟ (1) .

كذلك كان النبى يتحرق شوقا الى تحويل القبلة الى الكعبة وظل يقلب وجهه فى السماء ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا لعل الوحى ينزل عليه بتحويل القبلة قبل البيت ولكن رب القرآن لم ينزل فى هذا التحويل قرآنا رغم تلهف رسوله الكريم الا بعد قرابة عام ونصف العام فلماذا لم يسعف النبى نفسه بوحى عاجل يحقق ما يصبو اليه ويتمناه ؟ (2) .

(1،2) الدكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ص ٣٨ .

ويخلص المستدلون بفتور الوحى على صدقه الى القول بأن الوحى ينزل على محمد حين يشاء رب محمد ويفتر اذا شاء له رب محمد الانقطاع فلا تقدم عواطف محمد ولا تؤخر فى أمر السـماء !

٢١ ــ الاختلاف بين أسلوب القرآن والحديث النبوى

ومن الأدلة التى تساق أيضا على صدق الوحى المحمدى ما قام به بعض العلماء المسلمين من أمثال عبد القادر الجرجانى وابن سلام والحافظ وابى قدامة جعفر وابن الأثير وغيرهم من فحول النقد الأدبى فى النثر العربى من تباين لاعجاز القرآن ووجوه البلاغة فى أسـلوبه الفـذ ، والمقارنة بين القرآن وبين البلاغة المحمدية تدليلا على استحالة أن يأتى محمد بشىء من القرآن من عنده وأن القرآن منعند الله ولم يكن محمد حياله الا بشرا ناطقا بما يوحى اليه من كلام الله تبارك وتعالى ويتساءل أصحاب هذا التدليل : كيف يكون رجل واحد فينطق بكلام فيقول انه قرآن من عند الله ثم ينطق بكلام آخر فيقول انه كلامه من عند نفسه؟ وكيف يمكن التمييز والتفريق فى نفس واحدة وعقل واحد ووعى واحد وادراك واحد تغذيها حواس محدودة معلومة بين نوعـين من الكلام الحكيم البليغ ؟ ... ان الفوارق بين القرآن والحديث فوارق مهولة واختلاف الأسلوب واختلاف الألفاظ والمعانى بينهما اختلاف لا يتهيأ لمصدر واحد مهما كان المتكلم صناعا أو حذرا .

يقول محمد لطفى جمعه فى كتابه ثورة الاسلام: انى أتخذ من الاختلاف فى الأسلوب بين القرآن والحديث دليلا علميا وعقليا

وأدبيا على صحة الوحى وان كنت فى غنى عنه ولكننى أحببت لا أترك ثغرة ولا صدعا ولا منفذا لولوج الحجة الباطلة والفتنة الحاقدة والدسيسة الحاسدة وان هـذا الاختلاف ظاهر ظهور الشمس وقد قال به أشد خصوم النبى أثناء معاصرته [1] ولذا كانت حيرتهم شديدة فان الرجل لا يمكن أن يكون له أسلوبان فى الكلام وكذلك لا يملكون تعليل هذه الخطة التى ظنوا ظلما أنه سلكها بنظم الآيات وينسبها الى الله ثم يترسل فى الحديث ترسلا سائلا ومجيبا ناقدا أو مقرظا مستحسنا أم مستهجنا متنبئا من قريب أو بعيد ببشرى أو بوعيد ثم يضيف هذا القـول كله الى نفسه وأية غاية له فى ذلك التفريق ؟ وما هو المرمى الذى يصوب اليه هدفه ؟ وما على الناس اذا كان هذا هو كلام الله وهذا هو كـلامه ؟ [2] .

ويزداد الفرق وضوحا بين صفة الله المتكلم منزل الوحى وبين صفة رسوله المخاطب متلقى الوحى فى الآيات التى يعتب الله فيها على نبيه عتابا خفيفا أو شديدا أو يعلمه فيها بعفـوه عنه وغفرانه ماتقدم من ذنبه وماتأخر فمن خلال هذه الآيات المتوعدة المنذرة وتلك العافية المؤدية يبدو لنا رسول الله مخلوقا ضعيفا بين يدى ربه ذى القدرة القاهرة والقوة الكبرى والارادة التى

---

(١) لقد عرف خصماء العرب فى عهد النبى أن ليس فى القرآن شىء من الشعر وأن أسلوبه يعلوولا يعلى هـو بقـول بشر حتى قال قائلهم : ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وأن أعـلاه لمغـدق وأن أسفله لمثمر وما هو بقول بشر .

(٢) لطفى جمعه ، المرجع السابق ، ص ٥٧٠ .

لا معقب عليها ويبدو لنا أيضا كامل الوعى للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة وبوعيه الكامل هذا كان عليه السـلام يفرق بوضوح بين الوحى الذى ينزل عليه وبين أحاديثه الخاصة التى كان يعبر عنها بالهام من الله ، حتى الأحاديث القدسـية رغم اعتراف العلماء بأن معناها لله أو بأنه منزل من عند الله نحيت وفصلت عن القرآن لما لوحظ من حرص النبى ومن عدم خلطها بكتاب الله بما كان يستهل به مطالعها من عبارات نبوية يشعر بها سامعيه أنه يصوغ بأسلوبه البشرى معنى أنزله الله وشتان بين أسلوب محمد وان كان أفصح البشر وأسـلوب منزل القرآن صاحب القوى والقدر [1] .

هذه بعض الأدلة التى يسوقها العلماء تدليلا على أن القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى وهى أدلة منطقية لاجدال فيها . قال سبحانه وتعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين » .

---

(١) الدكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٣٣ ، ص٣٤

جَمْعُ الْقُرْآنِ وَتَدْوِينُه

« انا نحن نزلنـــا الذكر وانا له لحافظـــون »

أما المسألة الثانية التى أثار بعض المستشرقين الشكوك من حولها فهى جمع القرآن وتدوينه ومسألة الناسخ والمنسوخ،فقد هدف هؤلاء البعض من وراء ذلك الى التشـكيك والايهام بأن تغييرا أو تحريفا تسرب الى كتاب الله العزيز وان كان الغالبية العظمى من المستشرقين ـ وهذه احدى حسناتهم التى يحمدون عليها ـ قد أجمعوا على أن القرآن الموجود الآن بين أيدينا هو بنفسه الذى نزل على النبى بلا تغيير ولاتعديل ولا تحريف .

١ ـ تنجيم القـرآن :

ومن المعروف أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجما على حسب الوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية ومقتضيات الأحوال فى بضع وعشرين سنة ، وذلك ظاهر من نصوص القرآن فلم ينزل عن الله دفعة واحدة بل أجزاء وقطعا بالتدريج ، فقد جاء فى سورة الفرقان ردا على اعتراض المشركين الذين سمع بعضهم عن اليهود أن التوراة نزلت جملة واحـدة « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » أى كذلك أنزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك . ـ فكان نزول القرآن منجما بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل وينسب الى على بن أبى طالب أنه كان يقول « أنزل القرآن خمسا خمسا الا سورة الأنعام ومن حفظ خمسا خمسا لم ينسه » .

وعلى هذا المنوال ظل القرآن ينزل منجما ليقرأه النبى على مكث ، يعلمه كل يوم شيئا جديدا ويرشده ويهديه ويثبته ويزيده اطمئنانا ويتيسر عليه حفظه ويقرئه الصحابة شيئا بعد شيء ، يربيهم ويصلح عاداتهم ويجيب عن وقائعهم ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته .

ونزول القرآن منجما أمر ثابت من تكوين القرآن نفسه ومؤيد بالسنة والتواتر ، فقد أعلن النبى للعالمين وحى القرآن فى أوقات مختلفة بصحف مختلفة طولا وقصرا وآيات معددة أو مفردة وكل جزء من الوحى يسمى قرآنا فكان معاصرو النبى من أنصاره وأعدائه يقولون « نزل قرآن فى فلان وفى كذا » ولا يقولون آية ولا سورة .

ولفظ « قرآن » معناه تلاوة أو قراءة ومنه قوله تعالى « ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » ! الا أن العرب فى الجاهلية حين عرفوا لفظ « قرأ » استخدموه بمعنى غير معنى التلاوة أما قرأ بمعنى تلا فقد أخذها العرب من أصل آرامى وتداولوها . كذلك فان كلمة سورة نفسها معناها التتابع والتتالى وقد أطلقت فى زمن النبى على أجزاء القرآن وفصوله كما صارت الآية مطلقة على أجزاء السورة ووحداتها ، فكل سورة فصل من القرآن وكل آية جزء من السورة يختلف طولا وقصرا لأن بعض السور القصيرة كاملة فى ذاتها وكذلك بعض السور الطويلة تألفت من أجزاء شتى ونزلت فى أوقات مختلفة .

وتاريخ كل تنزيل معروف عند أهل السنة الذين اتخذوه عن

الصحابة أو عن النبى كما أن كثيرا من أسباب النزول معروفة وهذا ظاهر من بعض الآيات فى السور الكبيرة أو الصغيرة معترضة أو متناولة لموضوع يختلف عن السياق الظاهرى فى نظر القارىء السطحى أما القارىء المتمعن الحسن النية فيرى الانسجام التام والتناسق الكامل بين جميع الآيات وبين جميع السور وجميع الألفاظ والأحرف .

وهذا الاختلاف الظاهرى جعل بعض المستشرقين يشعرون باختلاط واختلاف وارتباك يشبه الفوضى والغموض !!

٢ ـ شبهات المستشرقين حول ترتيب السور والآيات :

وهذا يجرنا الى الحديث ـ قبل أن نتكلم عن جمع القرآن وتدوينه الى ـ مسألة هامة ودقيقة أكثر المستشرقون من حولها اللغط ، تلك هى مسألة التناسق والترتيب بين سور القرآن وآياته ووضعها فى مواضع تناسب سياقها .

فقد سبق أن ذكرنا أن القرآن كان ينزل منجما تبعا لما تفرق من الوقائع وكان النبى عليه الصلاة والسلام يأمر بكتابة الآية أو الآيات مع ما يناسبها من الآى فى المواضع التى علم من الله أنها مواضعها تبيانا لمفهوم الوحى ورعاية لنظم القرآن وحسن السياق .

ومع ذلك فقد أثار بعض المستشرقين شبهات حول الترابط والتناسق والترتيب فى سور القرآن وآياته وأخذوا يتساءلون:

لم جعلت هذه الآية الى جنب تلك ولم قفى هذا الموضوع بذلك ؟ وما وجه المناسبة بين هذه الآيات وتلك ، وهل هى مكملة لما قبلها أم مستقلة ؟ واذا كانت مستقلة فما وجه مناسبتها لما قبلها ولم سيقت هذا المساق ؟

ويضربون لذلك أمثلة عديدة نذكر منها قوله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى » فيتساءلون : أى رابط بين أحكام الأهلة وبين حكم اتيان البيوت ؟ كذلك قوله تعالى « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت » .

ويقولون اننا نرى فى هذه الآيات رفع السماء مفصولا عن خلق الابل ونصب الجبال مستقلا عن رفع السماء وسطح الأرض منقطعا عن نصب الجبال ولا نكاد نلمح بين هذه الآيات كلها وجها جامعا أو رابطا فكريا .

كذلك يتساءل الأب « لا منس » عن وجه الترابط بين الآيات الواردة فى قوله تعالى « لاتحرك به لسانك لتعجل به » .

كذلك قوله عز وجل فى سورة النساء « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » وقد نزلت هذه الآية فى رجل من أهل الكتاب هو كعب بن الأشرف وكان قدم الى مكة وشاهد قتلى بدر وحرض الكفار على الأخذ بثأرهم وغزو النبى فسألوه :

ـ من أهدى سبيلا المؤمنون أو هم ؟ فتملق الرجل عواطفهم وقـــال :

ـ بل أنتم أهدى من المؤمنين سبيلا • وبعد أن تعاقبت الآيات فى حق هذا الرجل وحق من شاركه فى هذا القول من أهل الكتاب يقول بعض المستشرقين ان السياق القرآنى يتجه الى آية جديدة فى مقطع جديد يدور الحديث فيه حول أداء الأمانات الى أهلها فيقول تعالى « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » وقد نزلت هذه الآية كما يقول المفسرون فى شأن عثمان بن طلحة العبدرى حاجب الكعبة لما أخذ منه رسول الله مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه وبين تلك الآية والآيات التى نزلت فى كعب ابن الأشرف ست سنين ويتساءل هؤلاء المستشرقون : لم جعلت هذه الآيات جنب بعض ؟ ولم أتبع هذا الموضوع بذلك على الرغم من الفاصل الزمنى البعيد بينهما ؟ •

الواقع أن شبهات المستشرقين فى هذا الخصوص ترجع أساسا بطبيعة الحال الى اختلاف لغاتهم ومباينة فطرهم للفطرة العربية وللذوق العربى وللأساليب الكتابية والبيانية وعدم المامهم الماما كافيا بأحوال العــرب فى الجاهلية وظروف تنزيل القرآن على النبى فى مكة والمدينة وتشعب الحوادث والواقعات العامة والخاصة ووفرة الشخصيات من الأعــداء والأصــدقاء الذين حـاربوا الاسلام أو ناصروه •

كذلك يرجع شعور المستشرقين بالاختلاف والاختلاط وعدم التناسب والتناسق وانسجام الســياق بين السور والآيات الى

عدم معرفتهم بأصول المسائل وملابسات الأحوال التى تناولها القرآن منذ أربعمائة وألف سـنة فى بيئة فطرية همجية ألطف صفاتها وأهونها أنها كانت جاهلية جهلاء [1] •

فمما لاشك فيه أن عدم الوقوف على أسباب النزول كثيرا ما يوقع فى اللبس والابهام ـ فيفهم القارىء أو السامع الآيات على غير وجهها ولا يصيب الحكمة الآلهية من تنزيلها حتى ان الواحدى يقول « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » •

كذلك فان رهافة الحس النقدى والفنى والاحكام الى التذوق الأدبى والمنطق الفطرى ـ تساعد كثيرا على استشعار الانسجام التام والترابط المحكم والتناسق الفنى والتسلسل الكامل فى آيات القرآن ، أما التماس أوجه الترابط من السور بعضها والبعض الآخر فالاجماع على أن ترتيب السـور توقيفى أى بأمر الله سبحانه وتعالى ، وبالتالى فلا يستلزم حتما أن يكون بين كل سورة سابقة وكل سورة لاحقة تسلسل واضـح ، والغالب فى السورة الواحدة أن تكون ذات موضوع بارز مستقل تأتلف عليه جزئياتها كلها فى مقاطعها المتلاحقة المترابطة والوجوه الموضوعية فى كل سورة على حدة لا ينبغى أن تكون هى الوحدة الموضوعية عينها فى السور كلها مجتمعة •

---

(١) محمد لطفى جمعه ، فى رحاب القرآن ، تحت الطبع ،

وللعلماء والمفسرين تعليلات لطيفة لالتماس الترابط بين الآيات بعضها وبعض حتى انهم يكادون يستخرجون منها موضـوعا واحدا محكم البناء متلاحم الأجزاء آخذا بعضه بأعناق بعض ـ وان كنا نلمح فى محاولات البعض فى هذا السبيل تعسفا وتكلفا غير مقبول ، فمثلا يقول الزركشى فى استجلاء مواطن الارتباط بين الآيات « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت»

« ان هذه الآيات جمع بينها على مجرى الالف والعادة بالنسبة الى أهل الوبر فان كل انتفاعهم فى معايشهم من الابل فتكـون عنايتهم مصروفة اليها ولا يحصل الا بأن ترعى وتشرب وذلك بنزول المطر وهو سبب تقلب وجوههم فى السماء ثم لابد لهم من مأوى يؤويهم وحصن يتحصنون به ولا شىء فى ذلك كالجبال !! ثم لاغنى لهم لتعذر طول مكثهم فى منزل عن التنقل من أرض الى سواها ، فاذا نظر البدوى فى خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور » (١) .

ولا يخفى على القارىء ما فى هذا القول من تكلف واعتساف فى التماس وجه الترابط والترتيب بين هذه الآيات .

وعندى أن هذه الآيات انما تفهم على أنها تتحدث جميعها عن قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق دون اسـتلزام أن تكون

---

(١) الزركشى ، البرهان فى علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٤٧ ، سنة ١٩٥٧ .

هناك رابطة بين بعضها البعض الآخر ، وليس فى ذكر هذه المخلوقات على هذا الترتيب (الابل والسماء والجبال والأرض) أى تنافر أو انقطاع صلة وانما يجمعها جميعها رابطة واحدة هى أنها مخلوقات ومشاهد كونية معروضة لنظر الانسان تظهر فيها قدرة الله سبحانه وتعالى على الخلق والابداع .

وقد فات المستشرقين فيما يثيرونه من شبهات حول التناسق بين آيات القرآن وسوره — أمر هام انعقد عليه الاجماع ، ذلك هو أن ترتيب الآيات فى كل سورة — شأنه فى ذلك شأن ترتيب السور فى القرآن — انما تم بأمر توقيفى ولا يقتضى ذلك عقلا ارتباط أحداها بالأخرى ، وفى ذلك يقول الزركشى « فأما الآيات فى كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفى بلا شك ولا خلاف فيه ولهذا لا يجوز تعكيسها » . وقد أشار السيوطى فى كتابه «الاتقان» الى هذا الاجماع حول ترتيب الآيات التوقيفى وذكر عبارة لأبى جعفر بن الزبير يقول فيها « ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف بين المسلمين » وقد فسر بعضهم قوله تعالى « ورتل القرآن ترتيلا » أى اقرأه على الترتيب من غير تقديم ولا تأخير .

وقد روى عن عثمان بن أبى العاص أنه قال « كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى « الى آخرها » .

وفى كتب السنة كثير من الأحاديث التى تصور رسول الله

صلى الله عليه وسلم يملى القرآن على كتاب الوحى ويوقفهم على ترتيب الآيات ، كما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قرأ سورا عديدة بترتيب آياتها فى الصلاة أو فى خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة فكان ذلك دليلا صريحا على أن ترتيب آياتها توقيفى •

ويروى عن زيد بن ثابت أكبر كتاب الوحى المحمدى أنه قال « كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع » ! ومعنى تأليف القرآن من الرقاع ترتيب السور والآيات وفق اشــارته عليه الصلاة والسلام وتوقيفه ، أى أنه لم يكن لأحد من كتاب الوحى دخل فى ترتيب آيات القرآن وسوره بعد أن وقف جبريل رسول الله على ترتيبها ووقف الرسول بدوره كتبة الوحى على ذلك •

ومع ذلك فان بعض المستشرقين عند الكلام على جمع القرآن فى عهد الصحابة — يأبون الا أن يتشبثوا ببعض الآراء الشاذة فى مسألة ترتيب الآيات والسور فى القرآن ، فقد ذهب البعض الى أن ترتيب السور اجتهادى من الصحابة وتوسط آخرون فقالوا ان الترتيب على قســمين توقيفى واجتهادى • ويقول الزركشى من أنصار الرأى الأول ان ترتيب بعضها ليس هو أمرا أوجبه الله بل أمر راجع الى اجتهادهم واختيارهم ولهذا كان لكل مصحف ترتيب !! « وسند أنصار هذا الرأى وكذلك أنصار الرأى القائل بأن الترتيب على قسمين توقيفى واجتهادى — يعتمد على حديث ضعيف — بل باطل — يدور اسناده فى كل رواياته على زيــد الفارسى الذى رواه عن ابن عباس وفى هذا الحديث تشــكك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى قراءة وســماعا وكتابة فى المصاحف ، كما أن فيه تشكيكا فى اثبات البسملة فى أوائل السور •

ولعل الخلاف فى هذه المسألة راجع الى أن رسول الله على الرغم من أن ترتيب الآيات والسور كان توقيفيا ـ الا أنه عند ماجمع القرآن فى صحف ـ لم يجد من الدواعى مايحمله على جمع آيات كل سورة فى صحائف عدة ولا جمع القرآن كله بين دفتى مصحف واحد ، لأن القراء وحفاظ القرآن كانوا كثيرين وكان عليه الصلاة والسلام يترقب توالى نزول الوحى عليه وامكان نزول ناسخ لبعض أحكامه أى أن القرآن كله كتب فى عهد الرسول غير مجموع فى مصحف واحد ، وقد أغنى عن ذلك حفظ الصحابة له فى صدورهم كما وقفهم عليه الرسول ونبههم الى مواضع السور والآيات بتوقيف من الله ، ويقول الزركشى فى ذلك « وانما لم يكتب فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مصحف لئلا يفضى الى تغييره فى كل وقت فلهذا تأخرت كتابته الى أن كمل نزول القرآن بموته صلى الله عليه وسلم .

ونخلص مما تقدم الى أن الاجماع بين العلماء على أن ترتيب السور والآيات توقيفى وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبا سمعوا النبى يقرأ على خلافه فبلغ ذلك مبلغ التواتر كما يقول السيوطى فى الاتقان ـ ويقول القاضى أبو محمد بن عطية أن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها فى حياته صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال والحواميم والمفصل . ـ واذن فلم يكن هناك أى مجال للاجتهاد فى ترتيب سور القرآن وآياته فى المراحل التالية لجمع القرآن .

فاذا كان الأمر كذلك فما الحاجة اذن الى تكلف المتكلفين فى ابراز التناسب والتناسق بين الآيات والسور ؟ وفيم اذن اعتراض

هؤلاء المستشرقين وما يثيرونه من غبار وشبهات حول التناسق والترتيب بين الآيات والسور ؟ •

ان القرآن ليس كتابا من تأليف بشر أو وضع مخلوق حتى يتوهم هؤلاء المستشرقون أنه يجب أن يفرغ فى قالب الكتاب المؤلف ويأتى على نسق المصنف الموضوع ينقسم الى أبواب وفصول ومباحث الى آخر هذه التقسيمات المعروفة فى الكتب المؤلفة وتجمعه وحدة موضوعية واحدة وأفكار مترابطة ، بل انه كتاب أنزل من لدن عزيز حكيم وحيا على النبى عليه الصلاة والسلام فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة والأسباب متباينة ومناسبات عدة ووقائع شتى ومع ذلك كله فقد تناسقت الآيات فى كل سورة من سوره وتسلسلت سوره أكمل تناسق وأجمل تسلسل ، وتعاقبت آياته فى الموضوع الواحد تأكيدا وتفسيرا أو عطفا وبيانا أو استثناء وحصرا أو اعتراضا وتذليلا حتى أغنى تناسقها وتسلسلها فى مواطن كثيرة عن التماس أسباب نزولها وعوض انسجامها الفنى واقعها التاريخى[1] •

٣ ـ معنى جمع القرآن :

بعد أن طوفنا بمسألة ترتيب الآيات والسور فى القرآن وعرضنا لشبهات المستشرقين حول هذا الموضوع ـ نعود الى ماكنا بصدده من الحديث عن جمع القرآن وتدوينه ، ونبادر الى

---

(١) الهامش مذكور فى الصفحة التالية •

القول بأن هـــذا الجمع وذلك التدوين قـــد مر بمراحل ثلاثة : الأولى ، مرحلة جمعه على عهد النبى ، والثانية جمعه على عهد أبى بكر والثالثة جمعه على عهد عثمان بن عفان وسوف نتناول فيما يلى كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث •

وجمع القرآن له معنيان ، الأول معنى الحفظ فى الصدور ومنه قوله تعالى « ان علينا جمعه وقرآنه » والمعنى الثانى هو كتابته كله مفرق الآيات والسور أو مرتب الآيات فقط وكل ســـورة فى صحيفة على حدة أو مرتب الآيات والسور فى صحائف مجتمعة تضم السور جميعا وقد رتبت احداها بعد الأخرى •

ولارتباط هذين المعنيين فى عملية جمع القرآن وتدوينه ينبغى علينا أن نشير الى جمع القرآن بمعنى حفظه واستظهاره وقد أوتيه الرسول قبل الجميع ، فكان عليه الصلاة والسلام سيد الحفاظ وأول الجماع ثم تيسر ذلك لنخبة من صحابته على عهده•ولاشك عندنا أن عدد هؤلاء الحفاظ غير قليل ، فقد ذكر القرطبى أنه قتل منهم يوم بئر معونة سبعون وقتل فى عهد الرسول مثل هذا العدد ومع ذلك يقول بلاشير Blachère فى كتابه Introdution au Corân أن الحـــديث النبـــوى لا يعـــرف للقـــرآن الا سبعة حفاظ هم عبد الله بن مسعود وسالم بن معقل مولى

---

(١) لا يفوتنا أن نشير هنا الى محاولات بعض العلماء المسلمين فى ترتيب السور القرآنية تبعا لتطورات الدعوة الاسلامية اعتمادا على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وهى محاولات تتصل بما يعرف فى علوم القرآن بعلم المكى والمدنى أى تناول القرآن كله

أبى حذيفة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو زيد ابن السكن وأبو الدرداء .

والواقع أننا لو أخذنا بظاهر الروايات التى يذكرها البخارى فى صحيحه لوقع الوهم بأن عدد الحفاظ على عهد الرسول لايزيد على السبعة ، ولكن العلماء فى تعليقهم على تلك الروايات يستبعدون صيغة الحصر فيقول الماوردى « كيف يمكن الاحاطة بأنه لم

سورا وآيات ومعرفة كل سورة فيه هل هى مكية أو مدنية وهل تستثنى من السورة المكية آيات مدنية ومن السورة المدنية آيات مكية . وقد حاول بعض المستشرقين مثل هذه المحاولات كالمستشرق جريمة H. Grimme الذى اعتمد على الروايات والأسانيد الاسلامية فى ترتيب سور القرآن ، كما أن المستشرق نولدكه كان يرى ضرورة ترتيب القرآن زمنيا على غير الطريقة الاسلامية وقد رسم لنفسه منهجا جديدا تأثر به كثيرون فأصبح موضوع هـذا الترتيب يشغل أذهان المستشرقين جميعا ويعلقون عليه أخطر النتائج فى عالم الدراسات القرآنية . وفى منتصف القرن التاسع عشر ظهرت فى أوروبا محاولات لترتيب سور القرآن ودراسة مراحله التاريخية فنذكر منها محاولة وليم موير W. Mur فى كتابه حياة محمد Life of Mohamed — فقد قسم المراحل القرآنية الى ست ، خمس منها فى مكة والسادسة فى المدينة واعتمد فى ذلك على سيرة الرسول وأسانيدها ، كذلك محاولة ويل Weil الذى قسم المراحل القرآنية الى أربع ثلاث فى مكة ورابعة فى المدينة وقد تأثر بهذه الطريقة كل من بل R. Bell ورودويل Rodwell وبلاشير Blachère وغنى عن البيان أن محاولات ترتيب سور القرآن على هذا النسق ، ليس هو ترتيبها التوقيفى بالمعنى المقصود من ذلك .

« يراجع فى ذلك كتاب الدكتور صبحى الصالح ، ص ١٦٤ وما بعدها فى الفصل المعقود عن علم المكى والمدنى » .

يكمله سوى أربعة والصحابة متفرقون فى البلاد ؟ وان لم يكمله سوى أربعة فقد حفظ جميع أجزائه مئون لا يحصون » •

ويفهم مما نقله السيوطى فى الاتقان عن كتاب القراءات لأبى عبيد القاسم بن سلام أن أبا عبيد عد من المهاجرين الخلفاء الأربعة وطلحة وسعدا وابن مسعود وحذيفه وسالما وأبا هريرة وعبد الله ابن السائب والعبادلة وعائشة وحفصة وأم سالمة ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومعاذا الذى يكنى أبا حليمة ومجمع بن حارثة وفضالة بن عبيد ومسلمة بن مخلد ، وقد صرح بأن بعضهم انما كمله بعد النبى •

وهؤلاء الذين عدهم أبو عبيد من المهاجرين والأنصار وأمهات المؤمنين ليسوا الا طائفة من الأصحاب الذين جمعوا كتاب الله فى صدورهم وتيسر لهم أن يعرضوه على النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا بذلك تلامذة له وكان شيخا لهم ، لكن الذين حفظوا القرآن من الصحابة من غير أن يعرضوه على الرسول لا يحصون عددا لاسيما اذا أدخلنا فى عدادهم من لم يكمل له الجمع ـ أى الحفظ ـ الا بعد وفاة النبى •

٤ ـ تدارس الصحابة للقرآن :

لقد كان الصحابة يتدارسون القرآن ويستظهرونه ليتمكنوا من قراءاته فى الصلوات المفروضة ليلا أو نهارا سرا أو جهرا وفى النوافل التى يتطوعون بها ، وكان النبى يعلمه أصحابه ويتلوه عليهم ويأمرهم بتلاوته ويساعدهم على تدارسه ويرغبهم فيه

ويشجعهم عليه بل كان عليه السلام يختار أعلمهم بكتاب الله ليفقه اخوانه ، فكان الرجل اذا هاجر دفعه النبى الى رجل من الصحابة يعلمهالقرآن وكان يسمع لمسجد رسول الله ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم الرسول أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا ٠

وكانوا اذا أقبل رمضان ملئوا به أسواقهم ومتاجرهم وعمروا به منازلهم ومساجدهم ، ولكى يشهده الجميع ويستمعوا اليه سن لهم الرسول صلاة القيام فكانوا يقرأون القرآن من بدايته الى نهايته وكان الرسول يشاركهم فى هذه الصلاة تارة ويستمع الى تلاوتهم فيها وهو فى بيته تارة أخرى ٠

وفى صحيح البخارى أن جبريل كان يعارض النبى بالقرآن كل عام مرة وأنه عارض مرتين فى العام الذى توفى فيه ، وفى الاتقان للسيوطى أن زيد بن ثابت أكبر كتاب الوحى المحمدى شهد العرضة الأخيرة التى بين الله فيها ما نسخ وما بقى وكتبها للرسول وقرأها عليه ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر فى جمع القرآن كما وكل اليه عثمان كتابة المصاحف كما سيأتى بيان ذلك ٠

٥ ـ جمع القرآن على عهد النبى :

ولكن كيف أمكن لسور القرآن وآياته أن تجمع وتتخذ شكل كتاب مع أنه لميسبق فى وطنه عليه الصلاة والسلام أن عرف شكل الكتاب قبل القرآن ؟ وبعبارة أخرى كيف تم جمع القـرآن أى كتابته فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ؟

الثابت أن النبى لم يكتب بيده الشريفة شيئا مطلقا وهذا ينفى نفيا باتا أن النبى كتب جزءا من معـــاهدة الحديبية كما جاء فى بعض الروايات ، وقد قام نزاع شديد وطويل بين المسلمين حول ما اذا كان الرسول قد تعلم القراءة والكتابة فى وقت ما ، ولكن الحجج التى تبودلت بين الطرفين كانت كلها دينية لا اجماعية ولا منطقية وبعضها مبنى على الشهادة الشفوية •

وعلى كل حال فقد انعقد اجماع المستشرقين على أن النبى كان دائما يستخدم كتابا للوحى ولأى شىء آخر مما كان يحتاج الى كتابة كالرسائل والخطابات •

وكانت الكتابة شائعة فى مكة أكثر منها فى المدينة لأن أهل مكة مشتغلون بالتجارة أما أهل المدينة فكانوا مشغولين بالزراعة وكان الخط الذى يكتب به العرب فى مبدأ ظهور الاســـلام هو الخط الانبارى الحيرى المسمى بعد انتقاله الى الحجاز بالحجازى وهو أصل النسخ • وكان يكتب به النزر اليسير مع العرب عامة وبضعة عشرين من قريش خاصة وبعض أفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من اليهود ، ولما انتصر النبى على قريش فى يوم بدر وأسر منهم جماعة كان منهم بعض الكتاب فقبل الفداء من الأمى منهم وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة فانتشرت الكتابة بين المسلمين وحض النبى على تعلمها وتمكن أمرها بعـــد فتح مكة واجتماع شمل المهاجرين والانصار •

٦ ـ كتاب الوحى المحمدى :

وقد اتخذ النبى كتابا للوحى فكانوا يكتبونه بين يديه على أدوات الكتابة المعروفة حينذاك ، فكانوا يكتبونه على اللخاف (جمع لخفة وهى الحجارة الدقاق أو صفائح الحجارة) والعسب (جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض) والاكتاف (جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف) والأقتاب (جمع قتب وهو الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه) وقطع الأديم (أى الجلد) ..

وكان يصحب النبى فى المدينة كاتب خاص يسجل الآيات والسور ولا سيما الخاص منها بالتشريع أولا بأول حتى يمكن اعلانها ونشرها على المجتمع الاسلامى الناشىء ، ولابد أن يكون قد بدىء بتدوين القرآن فى مكة اذ ثبت وجود أجزاء كثيرة من الآيات المبكرة مكتوبا خصوصا وان السور الطويلة كانت تحتاج الى التدوين بحيث يمكن الرجوع اليها وتلقينها للمبتدئين فى الاسلام وان كان الثابت أن الرسول قد وعى القرآن كله أولا بأول فكان مثلا يملى سورا من القرآن على أشخاص مختلفين فى أوقات مختلفة بنفس النص الذى أملاه على غيرهم .

وما ان تم نزول القرآن حتى كان لرسول الله أكثر من أربعين كاتبا وذكر البعض أن كتابه عليه الصلاة والسلام كانوا ستة وعشرين كاتبا وفى السيرة للعراقى أنهم كانوا اثنين وأربعين منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى وهو أول من كتب له

صلى الله عليه وسلم من قريش بمكة ، وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرنا من أن تدوين القرآن على عهد النبى لابد وأن يكون قد بدأو أول ما بدأ بمكة . ومنهم أيضا أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعامر بن فهيرة وعبد الله بن الأرقم وكان يكتب الرسائل للملوك ولغيرهم قال عمر فى حقه :

« ما رأيت أخشى لله منه » .

كذلك كان من كتاب النبى — أبى بن كعب وهو أول من كتب له عليه السلام من الأنصار فى المدينة وكان فى أغلب أحواله يكتب الوحى وهو أحد الفقهاء الذين كانوا يكتبون فى عهده عليه السلام وثابت بن قيس بن شماس وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان وأخوه يزيد قال بعضهم :

« كان معاوية وزيد بن ثابت رضى الله عنهما ملازمين للكتابة بين يدى رسول الله فى الوحى وغيره لا عمل لهما غير ذلك » . والمغيرة بن شعبة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد والعلاء بن الحضرمى وعمرو بن العاص — وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول [1] .

٧ — ابن ابى سرح وتزييف الوحى :

ونود أن نعرض هنا الى أحد كتاب الوحى المحمدى درج المستشرقون الى الاشارة اليه تارة تلميحا وتارة أخرى تصريحا

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٣ ، ص

بقصد الايهام بأن تحريفا وتغييرا تطرق الى القـــرآن فى أثناء تدوينه بين يدى رسول الله ، ذلك الكاتب هو عبد الله بن سعد ابن أبى سرح الذى تقول الروايات وكتب السيرة عنه انه أول من كتب له صلى الله عليه وسلم من قريش بمكة ، فقد ذكرت كتب السيرة أن النبى عندما دخل مكة فاتحا أمن أهلها وطمأنهم واستثنى جماعة أمر بقتلهم وان وجدوا متعلقين بأستار الكعبة منهم عبدالله ابن أبى سرح المذكور ، ذلك لانه كان قد أسلم قبل الفتح وكان يكتب لرسول الله الوحى وكان عليه الصلاة والسلام اذا أملى عليه « سميعا بصيرا » كتب « عليما حكيما » واذا أملى عليـــه « عليما حكيما » كتب « غفورا رحيما » وكان يفعل مثل هــذه الخيانات حتى صدر عنه أنه قال :

ــ ان محمدا لا يعلم ما يقول !!

فلما ظهرت خيانته وافتضح أمره ونزل فيه قوله تعالى « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم يوح اليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » ــ لم يستطع هذا الرجل أن يقيم بالمدينة فارتد عن الاسلام وفر هاربا الى مكة وأشاع أنه لما كتب قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » الى قوله سبحانه وتعالى « ثم أنشأناه خلقا آخر » تعجب من تفصيل خلق الانسان فنطق بقوله «فتبارك الله أحسن الخالقين» قبل املائه فقال له رسول الله :

ــ اكتب ذلك هكذا أنزلت !! فقال عبد الله :

ــ ان كان محمد نبيا يوحى اليه فأنا نبى يوحى الى !

ولما ارتد ولحق بمكة قال لقريش :

انى كنت أصرف محمدا كيف شئت كان يملى على عزيز حكيم فأقول ، أو عليم حكيم فيقول :

ـــ نعم كل صواب !!

وكل ما أقوله يقول : أكتب هكذا نزلت !!

وقد التقط بعض المستشرقين هذه الرواية وطنطنوا وشنشنوا بها زاعمين أنه لابد وأن يكون هناك تغيير أو تبديل أو تحريف تسرب الى كتاب الله عن طريق هذا الكاتب الخائن ـــ رضى الله عنه وعفا عنه لأنه عاد الى الاسلام بعد ردته وحسن اسلامه ـــ وقد نسى هؤلاء المستشرقون أوتناسوا أمرا هاما هو حجر الزاوية فى هذه المسألة ، ذلك أن كتابة الوحى على عهد النبى لم تقتصر على هذا الكاتب وحده بل لقد عد بعضهم أربعين كاتبا للنبى عليه الصلاة والسلام مابين كتبة وحى بين يديه وبين كتبة رسائل الى الملوك أو معاهدات صلح أو هدنة وغير ذلك مما كان يحتاج الى الكتـــابة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الرواية الخاصة بابن أبى سرح تقول انه لما ظهرت خيانته لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتد وهرب الى مكة .

ومعنى ذلك أنه لما انكشف وافتضـــح أمره أوقفه النبى عن كتابة الوحى ومنعه من تدوينه لما لمس فيه من خيانة وعدم أمانة

فيما يملى عليه من آيات الله حتى لقد ضاقت به المدينة فلـــم يستطع الاقامة بها فارتد عن الاسلام وفر بجلده هاربا الى مكة •

وتمضى الرواية الى القول بأنه لمـــا كان يوم الفتح وعلم هذا الرجل باهدار النبى دمه ولو وجد متعلقا بأستار الكعبة ـــ جزاء له على خيانته وارتداده لجأ الى حيلة ينقذ بها حياته من القتل ويستخلص بها عنقه من الضرب فلجأ الى عثمان بن عفان وكان أخاه فى الرضاعة وقال له :

ـــ يا أخى استأمن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقى !! فغيبه عثمان فى داره أى خبأه فى منزله ـــ حتى هدأ الناس واطمأنوا على أثر الفتح وأحداثه ثم استأمن له وأتى به الى النبى فأعرض عنه النبى فصار عثمان يقول : يارسول الله ! أمنته • والنبى يعرض عنه ثم قال :

ـــ نعم !!

فبسط يده فبايعه فلما خرج عثمان وعبد الله بن أبى سرح قال عليه الصلاة والسلام لمن حوله :

ـــ أعرضت عنه مرارا ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه !!

وربما حانت منه عليه السلام اذ ذاك نظرة الى عباد بن بشر، فقد كان عباد أنذر ان رأى عبد الله قتله •• وكان حينذاك قد أخذ بقائم سيفه ينتظر النبى يشير اليه أن يقتله فقال عليه الصلاة والسلام لعباد :

ــ انتظرتك أن تفى بنذرك

قال عبـــاد :

ــ يا رسول الله خفتك •• أفلا أومضت الى (يعنى أومأت الى بطرف عينك) •

فرد عليه الرسول الكريم وقال :

ــ ليس لنبى أن يومض وفى روايـــة : الايماء خيانة ليس لنبى أن يومى وفى رواية ثالثة : لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين !!

وتدلنا هذه الرواية على أن عبد الله بن أبى سرح لم ينج من القتل الا كرما من الرسول وعفوا منه عند المقدرة عليه وحلما منه على سفاهة هذا الرجل وحمقه ــ وترفعا عن الغدر به بايماءة من طرف العين الى عباد بن بشر بأن يضرب عنقه !!

ومع أن الرواية تقول ان عبد الله بن أبى سرح أسلم وحسن اسلامه وبايع النبى ودعا الله تعـــالى أن يختم عمره بالصلاة ومات فعلا وهو ساجد فى صلاة الصبح ــ الا أنه كان مع ذلك يستحى من مقابلة الرسول حتى قال عليه الصلاة والسلام لعثمان بن عفـــان :

ــ أما بايعته وأمنته •

قال : بلى • ولكن يذكر جرمه القديم فيستحى منك •

فقال الرسول : الاسلام يجب ما قبله .

فأخبره عثمان بذلك ، ومع ذلك صـــار اذا جاء جماعة للنبى يجىء معهم ولا يجىء اليه منفردا [1] .

نعتقد أنه بعد ذلك لا مجــال لأن يشــير المستشرقون الى عبد الله بن أبى سرح اشارة فيها غمز ولمز ليوهموا أن تزييفا تسرب الى القرآن عن طريق هذا الكاتب .

نعود فنقول ان النبى عهد بكتابة الوحى الى رجال من الصحابة عرفوا بالأمانة والصــدق وخشية الله وقوة الايمان وصـــدق العقيدة والاخلاص فى العمل وما حدث لعبد الله بى أبى سرح أحد كتاب الوحى ــ من الخزى والاستخذاء ــ أقوى دليل على صدق ما نقول .

وقد كان كل ما يكتب على عهد النبى من القرآن ــ يوضع فى بيته عليه الصلاة والسلام وينسخ الكتاب لأنفسهم نسخة منه وهكذا تعاونت نسخ هؤلاء ــ الكتاب والصحف التى فى بيت النبى مع حافظة الصحابة الأميين على جمع القرآن فى عهد أبى بكر وعثمان بن عفان .

وأكثر العلماء على أن جمع القرآن على عهد رسول الله لوحظ فى كتابته أن تشمل الأحرف الســبعة التى أنزل عليها . وهذا يجرنا الى الحديث عن الأحرف السبعة .

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٣ ص ١٠٤ .

٨ ــ الأحرف السبعة :

روى البخارى فى صحيحه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره فى الصلاة فانتظرته حتى سلم ثم لببته بردائه أو بردائى فقلت :

ــ من أقرأك هذه السورة ؟

قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

قلت له :

كذبت !! فوالله ان رسول الله أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها ٠ فانطلقت أقوده الى رسول الله فقلت :

ــ يا رسول الله ! انى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها وأنت أقرأتنى سورة الفرقان !

فقال رسول الله :

ــ أرسله يا عمر ! ٠٠٠ أقرأ يا هشام ٠

فقرأ هذه القراءة التى سمعته يقرؤها ٠

فقال رسول الله :

ــ هكذا أنزلت • ثم قال : ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ماتيسر منه •

وقد أثارت عبارة « الأحرف السبعة التى أنزل عليها القرآن جدلا طويلا بين العلماء والمفسرين حول المقصود منها ــ فذهب رأى الى أن المقصود بذلك القراءات وذهب رأى آخر الى أن المقصود من هذه الأحرف اللهجات وقال آخرون بل المقصود اللغات ــ وذهب رأى آخر الى أن المقصود بالأحرف السبعة سبعة أوجه من المعانى المتفقة بالألفاظ المختلفة نحو أقبل وهلم وتعال وعجل وأسرع وانظر وأخر وأمهل ونحوه » !

وقد أفسح هذا الاختلاف بين العلماء والمفسرين حول المقصود بالأحرف السبعة المجال للمستشرقين أن يغمزوا ويلمزوا ويثيروا الشبهات التى تتمثل فى ما يقول به بلاشير من أن نظرية القراءة بالمعنى كانت بلا ريب أخطر نظرية فى الحياة الاسلامية لأنها أسلمت النص القرآنى الى هوى كل شخص يثبته على ما يهواه [1] •

ونعتقد مع الدكتور صبحى الصالح أن المراد من هذه الأحرف السبعة الأوجه السبعة التى وسع بها الله على الأمة فبأى وجه قرأ القارىء منها أصاب ، يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) بلاشير ، المرجع السابق ،ص ٦٩ •

« أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستعيده حتى انتهى الى سبعة أحرف »[1] ذلك أن اللفظ القرآنى الواحد مهما يتعدد أداؤه وتتنوع قراءته لا يخرج التغاير فيـــه عن وجوه سبعة يمكن حصرها بطريق الاستباط والاستقراء[2] .

٩ ــ شبهات المستشرقين حول الناسخ والمنسوخ :

وقد أثار بعض المستشرقين شبهة حول الناسخ والمنسوخ فقد جاء فى دائرة المعــارف البريطانية أن القرآن يسمح بالقول بأن النبى قد نسى بعض التنزيل ، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى :

« ســـنقرئك فلا تنسى الا ما شـــاء الله انـــه يعلم الجهـــر وما يخفى[3] » .

وهم بطبيعة الحال يشيرون بذلك الى مزاعمهم الواضحة حول الوحى المحمدى وأن القرآن من صنع النبى وتأليفه وان كانوا

---

(١) دكتور صبحى الصالح ، مباحث فى علوم القرآن ، الطبعة الخامسة ، سنة ٦٨ ص ١٠٨ .

(٢) مثال ذلك قوله تعالى « ولا يضار كاتب ولا شهيد » « فقد قرىء » « ولايضـار » « والصراط » « والسراط » «والمصيطرون والمسيطرون » ــ « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » فقــد قرىء لأمانتهم واختلاف اللهجــات فى الفتـــح والامالة والترقيق والتفخيم والهمز والتسهيل وغير ذلك .

(٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Mohammedanism ج ١٦ ص ٩٨ وما بعدها .

يزعمون أن القرآن قد صدر عن النبى فى حالة تحمس شــديد وانفعال بالغ بحيث لم يكن يستطيع أن يعتبره غير وحى الهى ويعتقد أنه كلام الله أنطقه الله به وأنه من المرجح ــ مع امتلائه ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالأفكار الدينية والمناظر التى تملأ صدره بالايمان ــ اعتقد أن الملك يأمره بتلاوة ما أوحى اليه ولم يكن يسمع هذه الموحيات والألهامات أحد سواه فكان يعيدها لنفسه فى ظلام الليل بمفرده •

وهذا الكلام من المستشرقين لا يسوءنا لانهم يقدمون أول ما يقدمون صدق النبى وحسن نيته وحرارة ايمانه وعمق اعتقاده بأن القرآن منزل وموحى اليه بغض النظر عما يعللون به ذلك ما داموا يقرون هذه الحقيقة ــ وهذا يكفينا من قوم لا يؤمنون بما يؤمن به المسلمون •

على أن عذر هؤلاء المستشرقين ــ اذا حاولنا أن نلتمس لهم عذرا هو ما غصت به كتب السيرة والتفسير من روايات عن نسخ بعض الآيات ، فقد قيل فى تفسير قوله « ما ننســخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير» (البقرة : ١٠٦) ــ أن المقصود بذلك قبض الآية أى رفعها •

ويروون أن عمر بن الخطاب أراد أن يثبت آية منســوخة نصها « لا ترغبوا عن آبائكم فان ذلك كفر بكم الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » كذلك نسب الى أنس بن مالك أنه قال « كنا نقرأ على عهد رسول الله سورة تعدل سورة التوبة طولا ما أحفظ منها غير آية واحدة »

ولو أن لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى اليهما ثالثا ولو أن له ثالثا لابتغى ــ اليها رابعا ولا يملأ جوف ابن ادم الا التراب ويتوب الله على من تاب » !!

يقول لطفى جمعه فى مقدمة كتابه « فى رحاب القرآن » :

« انى مع احترامى لانس بن مالك رضى الله عنه ــ أشك كثيرا فى روايته :

أولا : لأنه لو حفظ سورة تعدل سورة التوبة فلم يكن هو وحده الحافظ لها دون سواه من الصحابة فلو نسيها لتذكرها سواه .

ثانيا : أن الذى نعلمه عن المنسوخ أنه يعد بالآيات لا بالسور .

ثالثا : من الوجهة الأدبية الفنية مع العجز والضعف وعدم المدعوى نزعم أن هذا ليس أسلوب القرآن حتى ولا أسلوب الحديث المحمدي خصوصا تكرير ذكر الوديان وجوف ابن آدم والسجع المتكلف فى قوله « التراب » ويتوب الله على من تاب وليس هناك أى ارتباط بين المعانى فى هذا الكلام الموصوف بأنه آية .

فان كانت حقا آية نسخت فالحمد لله على رفعها وان كانت بقية هذه السورة على نسق هذه الآية فالحمد لله كثيرا أنها لم تبق فى صدر أحد .

دع عنك قوله « واديان » بعد « أن » الناصبة لاسمها .
ولعل هذه النبذة أن تكون من الكلام الذى حاول بعض المعاصرين والحاسدين أن يقلدوا به أسلوب القرآن ففشلوا أو لم يجرؤ أحد على نسبتها الى نفسه وغلوها صحابيا جليلا كأنس بن مالك .

أما ماهو منسوب الى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه..
فان مقام عمر وحده هو الذى يمنعنا عن الحكم على ما روى عنه بما سبق به الحكم على كلام أنس بن مالك [1] « ويكفينا فى هذا الصدد أنهم قالوا أن ما ذكره عمر عن « الشيخ والشيخة » كان فى سورة النور كما قيل انها كانت فى سورة الأحزاب لا فى سورة النور مما يدل على اضطراب الرواية فى هذا الشأن[2]
كذلك يروى عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه أنه قال :

ــ قرأ رجلان سورة أقرأهما اياها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا ذلك له فقال الرسول :

ــ انها مما نسخ وأنسى فألهوا عنها !!

---

(١) محمد لطفى جمعة ، مقدمة « فى رحاب القرآن » ــ تحت الطبع .
(٢) دكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٢٦٥ هامش رقم ٢ .

وهذا الحديث لا شك فى أنه موضوع لان سليمان بن أرقم هذا ضعيف ولا يعتمد عليه فى رواية الحديث •

كذلك يروون عن قتاده أنه قال فى قوله تعالى « مانسخ من آية أو ننسها » : كان الله تعالى ينسى نبيه ما يشاء • وقال جرير فى حديث عن الحسن أنه قال فى قوله تعالى « أوننسها » أن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرىء قرآنا ثم نسيه » •

ولا شك فى أن هاتين الروايتين مكذوبتان لأنه ما كان النبى لينسى قرآنا أمر الله تعالى بتبليغـه اذ لو وقع من ذلك شىء لتطرق الشك فى كل ما كان يبلغه عن ربه سبحانه •

كذلك يروى عن محمد بن الزبير الحرانى عن الحجـاج عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : كان مما ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم الوحى بالليل وينساه بالنهار !! فأنزل الله عز وجل « مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » ومن المعلوم عند علماء الحديث أن محمد بن الزبير هذا ليس بالمتين •

ونخلص مما تقـدم الى أن جميع الروايات التى جاءت عن نسيان آية أو سورة روايات ضعيفة فى اسنادها وبالتالى فلا يمكن التعويل عليها أو الاعتداد بها والاطمئنان اليها ، لأن جميع ما ذكر عن هذه الشواهد لا تعدو أن يكون أخبار آحاد ولا يجوز القطع على انزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها ولأن خبر الواحد لا يثبت القرآن •

وحقيقة الأمر فى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » أنها لا تخرج عن غاية الله سبحانه وتعالى من جعل هذه الآية ردا مفحما على اليهود — فقد زعموا على أيام النبى استحالة النسخ اما عقلا أو نقلا وبالتالى فقد أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام • وقد حمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ عنادهم ومكابرتهم اذ ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله لانه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد ، والتوراة نفسها حرمت بعض ما كان مباحا لاسرائيل وبنيه فقد كان نكاح الأختين مباحا لاسرائيل وأبنائه ثم حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها وغير ذلك •

ونحن لا نعتقد مع الدكتور صبحى الصالح أن نظرية الناسخ والمنسوخ من النظريات والقضايا التى لها فى الاسلام خطر كبير وأنها أمر كان له فى التشريع الاسلامى وفى البحث القرآنى أصداء عميقة [1] ، لآن الأحكام ظاهرة وثابتة والقرآن كله على وتيرة واحـــدة •

ونود أن نعرض هنا بهذه المناسبة الى مسألة طنطن بهـا المستشرقون وشنشنوا ، وهى شنشنة نعرفها من أخرم ذلك أنه روى أن النبى لمـا قرأ سورة النجم وقـال « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » قال « تلك الغرانيق العلى وان

---

(1) دكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦٢ •

شفاعتها لترتجى » فلما ختم السورة سجد وسجد معه المسلمون والكفار لمـــا سمعوه أثنى على آلهتهم • وتقول بعض الروايات أن الشيطان ألقى ذلك على لسانه وأنه عليه الصلاة والسلام كان قد تمنى لو نزل عليه شىء يقارب بينه وبين قومه أولا ينزل عليه شىء ينفرهم منه وتمضى الرواية الى القول بأن جبريل جاءه فعرض عليه السورة فلما بلغ الكلمتين قال له :

ــ ما جئتك بهاتين •

فحزن النبى لذلك فأنزل الله تسلية له « وما أرسلنا من قبلك من رســول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشــيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشــيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » • وقوله أيضا « وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا » •

ويقول بعض المستشرقين ان هذه الرواية قاطعة فى الدلالة على أن بعض ما جرى على لسان النبى باعتباره وحيا من الله سبحانه وتعالى ليس من القرآن فى شىء أو أنه من القرآن ولكن النبى آثر حذفه على اثباته ، وردنا على هذه الفرية ــ فضلا عما جاء فى كتب السيرة من أن الدلائل الواضحة قامت على صــدقه عليه الصلاة والسلام وأن الأمة أجمعت على أنه معصوم عن الاخبار عن شىء بخلاف ما هو من ابلاغ الشريعة الاعلام بما أخبر به عن ربه وما أوحاه اليه من وحيه لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا ــ وأنه لا يقول الا حقا ولا يبلغ عن الله الا صدقا قال تعالى « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » ــ نقول

أنه فضلا عن ذلك فان هذه الرواية لم يخرجها أحد من أهل الصحة ولا رواة ثقة بسند متصل سليم انما أولع بها وبمثلها المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح سقيم كما يقول القاضى عياض فى كتابه « الشـفا بتعريف حقوق المصطفى[1] » .

ويقول القاضى بكر بن العلاء المالكى لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسـير وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقله واضطراب رواياته وانقطاع اسـناده واختلاف كلماته فقـائل يقول انه فى الصلاة وآخر يقول قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة وآخر يقول قالها وقد صابته سنة من النوم وآخر يقول بل حدث نفسه فسهى وآخر يقول ان الشيطان قالها على لسانه وأن النبى لمـا عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك وآخر يقول بل أعلمهم الشيطان أن النبى قرأها فلما بلغ النبى ذلك قال والله ما هكذا أنزلت الى غير ذلك من اختلاف الرواة ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها الى صاحب وأكثر الطرق عنهم فيها ضـعيفة واهية » ويقول أبو بكر البزاز « هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى باسناد متصل وانما يعرف عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس.والكلبى هذا كما يقول القاضى عياض ـ مما لاتجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه .

---

(١) القاضى عياض ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، سنة ١٣٢٧ ، ص ١١٧ .

وخلاصة ما تقدم أن هذه الرواية لا سند لها ولا أساس يمكن الاطمئنان اليه بالتالى فلا نعول عليها فى قليل أو كثير ولم نذكرها الا لما أثاره المستشرقون حولها .

١٠ ـ جمع القرآن على عهد أبى بكر :

« رحم الله أبا بكر هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين »

على بن أبى طالب .

عندما توفى النبى دخل جمع القرآن مرحلته الثانية ، فقد كان القرآن كله مكتوبا وفى صدور الصحابة محفوظا ، وقد تركه عليه الصلاة والسلام أمانة فى عنق أصحابه فأخذوها بقوة وصانوها بعزم ولم يضنوا عليها بجهد ولم يكترثوا فى ـ سبيلها بعقبة .

فعلى كرم الله وجهه ـ يعتكف فى داره ويعطى الله عهدا أن لا يأتزر بازار حتى يجمع القرآن حسب نزوله ، وعمر رضى الله عنه يهوله قتل الحفاظ فى واقعة اليمامة اذ قتل منهم سبعمائة فيشفق على ضياع شىء من القرآن ويذهب الى أبى بكر ويخبره الخبر وبعد أخذ ورد يتفقان على جمع القرآن وكتابته ويعهدان بذلك الى زيد بن ثابت . ويصور أبو عبد الله المحاسبى عمل أبى بكر بقوله : «كتابة القرآن ليست بمستحدثه فانه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقا فى الرقاع والاكتاف والعسب وانما أمر الصديق بنسخها من مكان الى مكان مجتمعا وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت فى بيت رسول الله صلى

الله عليه وسلم منتشرا فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شىء[1] » •

١١ ــ مجهود زيد بن ثابت فى جمع القرآن :

ويهمنا أن نقف قليلا على ما بذله زيد بن ثابت من مجهود جبار فى جمع القرآن ولندع زيدا رضى الله عنه يروى بنفسه قصة ذلك العمل الكبير الذى عهد به اليه يقول زيد :

« أرسل الى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه :

ــ ان عمرا أتانى فقال ان القتل قد استحر (أى اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك رأى عمر » •

ويمضى زيد فى روايته فيقول ان أبا بكر قال له :

ــ انك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه •

---

(١) الزركشى ، البرهان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ •

ويروى زيد ثقل هذه المهمة التى كلفاه بها أبو بكر فيقول :

ــ فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن • قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال أبو بكر :

ــ والله هو خير •

ويمضى زيد فى حديثه فيقول:« فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبو بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الانصارى ــ لم أجدها مع أحد غيره ــ أى لم يجدها مكتوبة مع غيره ــ «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » حتى خاتمة براءة •

ويختتم زيد بن ثابت حديثه فيقول :

ــ وكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصه بنت عمر •

ويروى ابن أبى داوود أن أبا بكر قال لعمر وزيد :

ــ اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه •

ويقول يحى بن عبد الرحمن بن حاطب « قدم عمر فقال : من كان تلقى من رسـول الله صلى الله عليه وسلم شـيئا من القرآن فليأت به » •

« وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسـب وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان » •

ويقول السخاوى فى « جمال القراء » « المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم » •

والمستفاد من هذه النصوص جميعها أن عملية جمع القرآن على عهـد أبى بكر بمعرفة زيد بن ثابت لم تكن مجرد تجميع وتدوين وانما صاحب ذلك تدقيق وتحقيق يتمثل فيما أمره به أبو بكر من أنه لابد من شاهدين هما الحفظ والكتابة لقبول آية أو آيات وقيل كان يكتفى بشاهد واحد على الكتابة وشاهد واحد على الحفظ ولكن الجمهور على ضرورة شاهدين عدلين على الكتابة وشاهدين عدلين على الحفظ فلا يكتفى بشاهد واحد على كل الأمرين •

على أنه مهما يكن من أمر فقد بذل هذا الصحابى الجليل الذى كان موضع عناية الرسول جهـدا جبارا فى جمع القرآن فاتم جمعه كله خلال سنة واحدة تقريبا لأن أمر أبى بكر له بجمعه كان بعد واقعة اليمامة وقد حصل الجمع بين هذه الواقعة ووفاة أبى بكر •

وقد نشأت تسمية القرآن « بالمصحف » فى عهد أبى بكر فقد أخرج ابن اشته فى كتابة « المصاحف » عن طريق موسى ابن عقبة عن ابن شهاب قال .

ــ لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر . التمسوا له اسما فقال بعضهم : السفر ! قال : ذلك اسم تسميه اليهود فكرهوا ذلك .

وقال بعضهم : المصحف فان الحبشة يسمون مثله المصحف . فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف [1] :

وقد ظفر مصحف أبى بكر باجماع الأمة الاسلامية عليه وتواتر ما فيه .

وكما سبق أن ذكرنا ظل هذا المصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم صار الى عمر وظل عنده حتى توفى ثم صار الى حفصة بنت عمر وزوجة النبى .

وتأبى دائرة المعارف الاسلامية الا أن تثير شبهة حول هذا الموضوع فتتساءل : ألم يكن عثمان اجدر أن تودع هذه الصحف عنده ؟

ويرد الدكتور صبحى الصالح فى كتابه « مباحث فى علوم

---

(١) السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ، سنة ١٩٤١ ، ج ١ ص ٨٩ .

القرآن » على هذه الشبهة بقوله « بل حفصة أولى بذلك وأجدر لأن عمر أوصى بأن تكون الصحف مودعة لديهـا وهى زوجة رسول الله أم المؤمنين ، فضلا عن حفظها القرآن كله فى صدرها وتمكنها من القراءة والكتابة وكان عمر قـد جعل أمر الخلافة شورى من بعده فكيف يسلم الى عثمان هاتيك الصحف قبل أن يفكر أحد فى اختياره للخلافة [1] ؟

١٢ ـ جمع القرآن على عهـد عثمان بن عفان :

دخل جمع القرآن فى عهـد عثمان بن عفان مرحلته الثـالثة والأخيرة ، ولعل هذه المرحلة ـ فى اعتقادنا ـ أن تكون أهم واخطر مرحلة بعد جمعه على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فعن المصحف الامام الذى جمع على عهـد عثمان ـ تواترت جميع المصاحف المتداولة الآن فى جميع أنحاء العالم الاسلامى منذ ألف وأربعمائة سـنة .

من المعروف أنه فى عهد عثمان كثرت الفتوح الاسـلامية وانتشر القراء فى الأمصار وقرأوا القرآن بلغاتهم على تعددها فأدى ذلك ببعضهم الى تخطئة بعض ويروى البخارى فى صحيحه ـ أن حذيفة بن اليمان قاهر الفرس ومزيل ملك بنى ساسان قـدم على عثمان وكان يغارى أهل الشـام فى فتح أرمينيـة وأذربيجان من أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان :

---

(١) دكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٧٧ .

ـ يا أمير المؤمنين أدرك هـذه الأمة ! قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى •

فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا بالصحف ننسـخها فى المصاحف ثم نردها اليك ، فأرسلت به حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة :

ـ اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فانه انما أنزل بلسانهم •

ففعلوا حتى اذا نسـخوا المصحف فى المصـاحف رد عثمان الصحف الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سـواه من القرآن فى كل صـحيفة أو مصحف أن يحرق •

والمستفاد من ذلك أن ما لمسـه حذيفة بن اليمان فى غزواته من اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن كان هو الباعث الأساسى والحافز الوحيد على أمر عثمان بنسخ صحف حفصة وجمعها فى مصاحف ، خصوصا وأنه كان قد وقع لعثمان نفسه شىء من هذا القبيل قبل ذلك فرأى أن يتدارك الأمر قبل اسـتفحاله ، فقد ذكر الطبرى فى تفسيره أنه لمـا كان فى خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل فجعل الغلمان

يلتقون فيختلفون حتى أرتفع ذلك الى المعلمين حتى كفر بعضهم بقراءة بعض ، فبلغ ذلك عثمان فخطب وقال :

ـــ أنتم عندى تختلفون فيـــه وتلحنون ، فمن نأى عنى من أهل الأمصار أشد فيه اختلافا وأشد لحنا ، اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس اماما !

وربما يكون قد ساعد على هذا الاختلاف الذى وقع عثمان الى جمع القرآن فى مصحف ـــ أنه كانت هناك مصاحف أخرى فردية مشهورة عرفت الى جانب مصحف حفصة فى الزمن الممتد من وفاة النبى حتى جمع عثمان الناس على مصحف واحد وأشـــهر تلك المصاحف اثنان ، احدهما مصحف ابن كعب والآخر مصحف عبد الله بن مسعود الذى كان يعتز به أيما اعتزاز !

وعلى الرغم من وضوح السبب الذى دفع عثمان بن عفان الى جمع القرآن فى مصحف امام حســـبما جاء فى الروايات وهو خشيته اختلاف المسلمين فى كتابهم ـــ فان بعض المستشرقين ـــ وعلى رأسهم بلاشير ـــ يأبون الا أن يتشككوا فى نية عثمان فى جمع القرآن يذهبون الى أنه انما سعى الى تحقيق هذا العمل العظيم بدافع من نزعته الارستقراطية ، فلم يجمع كتاب الله العزيز ـــ فى زعمهم ـــ الا باســـم الطبقة الارستقراطية المكيه التى كان هو خير ممثل لها [1] .!!

---

(١) بلاشير ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

والواقع أنه لا سند لهؤلاء المستشرقين فيما زعموا الا خيالهم السقيم وظنهم الكاذب ، فالبخارى الذى روى فى صحيحة ذلك الخبر الذى ذكرناه عن جمع القرآن على عهد عثمان — لا يعرف التاريخ من يضارعه فى الثقة والضبط والأمانة وتحرى الصحيح فيما يروى ولكن ماذا نقول فى الحق الأسود والتعصب الأعمى ؟

١٣ — شبهات حول أشخاص اللجنة الرباعية :

كذلك لم يسلم عدد أعضاء اللجنة التى عهد اليها بجمع القرآن من تعليق المستشرقين وتعقيبهم كما لم تسلم أشخاصهم من الغمز واللمز !! والسبب فى ذلك — وللأسف الشديد — ولوع ابن أبى داوود بايراد الروايات المختلفة غثها وسمينها فى الموضوع الواحد مهما تضاربت فلايكتفى — عفا الله عنه — بذكرتلك اللجنة الرباعية التى سماها البخارى بل يتطوع بتسمية قوائم بلجان أخرى منها لجنة ثنائية مؤلفة من زيد بن ثابت وسعيد بن العاص ومنها لجنة مكونة من أثنا عشر شخصا !!

ويذهب بلاشير فى مقدمته عن القران الى أن الرهط القرشيين الثلاثة كانوا هم الآخرين — من الطبقة الارستقراطية — وتجمعهم بعثمان بن عفان صلات المصاهرة !! وبالتالى جمعت بينهم — فيمايزعم — المصالح المشتركة فما كان أحد منهم يتصور أن يتم جمع القرآن واستنساخ المصحف فى غير مكة مدينتهم الغالية العزيزة على أنفسهم — ولما كان زيد بن ثابت — مدنيا من الأنصار وأبعد ما يكون عن النزعة الارستقراطية فان بلاشير يذهب بخياله السقيم الى أنه وافق المكيين الثلاثة تملقا لهم !!

ويتوهم بلاشير أن اشتراك سعيد بن العاص الذى أشركه عثمان فى عمل اللجنة ــ انما كان اشتراكا فخريا لا عمليا لأنه كان واليا على الكوفة فى حدود سنة ٣٠ هـ • وهذا خطأ لأن اللجنة بدأت عملها فى حدود سنة ٢٥ هـ • كما يذكر بن حجر •

ونحن نرد على بلاشير وأمثاله ماذا من ضرر فى أن يتنافس هؤلاء أو أولئك فى جمع المصحف ، وماذا من بأس فى أن تنال مكة أو المدينة ذلك الشرف ، أليس الجميع من الصحابة وأليست مكة بلد النبى والمدينة دار هجرته •

على أن كل من قرأ التاريخ يدرك لأول وهلة فساد ما ذهب اليه بلاشير من محاولة تجريح الاشخاص الذين عهد عثمان اليهم بجمع القرآن والنيل منهم ، فهؤلاء الأربعـــة جميعا من ثقات الصحابة وأفاضلهم ومشهود لهم بالايمان والورع والاخلاص والامانة التـــامة والنزاهـــة المطلقـــة ومع ذلك فان كثيرين من المستشرقين يعترفون بورع أعضاء هذه اللجنة واحتياطهم الشديد فى نسخ المصاحف ، بل ان بلاشير نفسه يقول « لا يسع أحد الشك فى عمق شعور أعضاء اللجنة بمسئوليتهم ، ولئن فاتهم منهج البحث الذى لم يكن متيسرا لأحد فى عصرهم فلم يفتهم ــ الاحتياط والورع » •

١٤ ــ خطة اللجنة فى جمع القرآن :

والواقع أن هؤلاء الأربعة لم يفتهم أيضا منهج البحث كما يقول بلاشير فقـــد شرعوا فى تنفيذ مهمتهم ســـنة ٢٥ هـ وأخذوا

ينسخون من صحف حفصة ، مع أنهم كانوا جماعا لكتاب الله فى صدورهم ، يحفظونه ويستظهرونه ولكنهم صدعوا بأمر عثمان لتكون مصاحفه مستندة الى أصل أبى بكر المستند بدوره الى أصل النبى المكتوب بين يديه بأمره وتوقيف منه فسدوا بذلك كل ذريعة للتقول والتشكيك •

وتذكر الروايات طريقة عمل اللجنة الرباعية وخطتها فى ذلك ومنهجها فى البحث والتقصي والفحص والتمحيص ، من ذلك ان عثمان بن عفان قال لزيد :

ــ انى مدخل معك رجلا لبيبا فصيحا فما اجتمعتما عليه فاكتباه وما اختلفتما فيه فارفعاه الى •

فجعل معه سعيد بن العاص حتى بلغوا قوله تعالى « ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت » قال زيد : التابوه ! وقال سعيد : بل التابوت •

فرفعا الأمر الى عثمان فقال : انها التابوت • فكتب التابوت •

وكتبوا المصحف واستعرضوه عرضه بعد أخرى •

كذلك يروى الطبرى فى تفسيره طرفا من طريقة عمل اللجنة الرباعية فيقول « فاجتمعوا فكتبوا فكانوا اذا اختلفوا وتدارءوا فى أى آية قالوا : هذه أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلانا • فيرسل اليه وهو على ثلاث من المدينة فيقال له :

ـ كيف اقرأك رسـول الله صلى الله عليه وسـلم آية كذا ! وكـذا ؟

فيقـول :

كـذا وكـذا .

فيكتبونها ؟

كذلك تذكر الروايات أن أعضاء اللجنة جردوا المصاحف التى نسخوها من جميع الزيادات التى لم تتوافر قرآنيتها وانماكانت من قبيل التفسير أو تفصيل المجمل أو اثبات المحذوف ، وأهملت منها جميع الروايات الآحادية وأضحت سـورها وآياتها مرتبة على النحو الذى نجده اليوم فى مصاحفنا ، ذلك أن من الصحابة من كان يكتب فى مصحفه ما سمع تفسيره وايضاحه من النبى ، مثال ذلك قوله تعالى « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » فقد قرأ ابن مسـعود وأثبت فى مصحفه « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ـ فى مواسم الحج ـ » . وتلك الزيادة للتفسير والايضاح لانها مخالفة لسواد المصاحف التى أجمعت عليها الأمة وقد أوضح ابن الجزرى ذلك فقال :

« وربما يدخلون التفسير فى القراءات ايضاحا وبيانا لانهم محققون لما تلقوه عن النبى صلى الله عليه وسلم قرآنا ، منهم آمنون من الالتباس ، وربما كان بعضهم يكتبه معه « أى مع القرآن فى المصحف الذى يكتبه لنفسه كمصحف عائشة الا أن اللجنة جردت المصحف العثمانى مما ليس بقرآن من الشروح والتفاسير .

وتدلنا هذه النصوص التاريخية على طريقة العمل التى اتبعتها اللجنة ــ والمنهج السديد الذى اختطته لنفسها فى استنساخ القرآن بتكليف من عثمان وارشاده ، ولا شك أن هذه الطريقة وذلك المنهج ــ رضى بلاشير أو لم يرض ــ أقرب ما تكون الى طريقة تحقيق النصوص المعروفة حديثا على أحدث المناهج وأدقها فمن مقابلة بين ما ينسخون وبين النسخة التى كانت مودعة عند حفصه الى رجوع الى صحابى كان الرسول قد أقرأه آية اختلفوا عليها ، ومن رفع الأمر الى عثمان بن عفان عند الاختلاف فى لفظة الى تجريد المصحف مما ليس بقرآن من الشروح والتفاسير ، فضلا عن أن أعضاء اللجنة أنفسهم كانوا حفاظا لكتاب الله العزيز وعته صدورهم واستظهرته ذاكرتهم وحفظته قلوبهم فهل يمكن القول بعد ذلك بأنه قد فاتهم منهج البحث الذى يقول بلاشير عنه ويتحسر عليه ؟

١٥ ــ ترتيب السور والآيات والاحرف السبعة والرسم العثمانى :

ولعله أن يكون من نافلة القول أن نذكر أن ترتيب الآيات والسور فى المصحف العثمانى هو نفسه ترتيبهما التوقيفى فى صحف حفصة ، فقد أخرج البخارى عن ابن الزبير أنه قال :

ــ قلت لعثمان « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟

قال :

— يا ابن أخى !! لا أغير شيئا من مكانه .

أى أن عثمان لم يجرؤ على تغيير آية من مكانها ولو ثبت أنها منسوخة لأنه كان يعلم أن ليس له ولا لغيره دخل فى ترتيب آيات القرآن وسوره بعد أن وقف جبريل رسول الله على ترتيبها ووقف رسول الله بدوره كتبة الوحى على ذلك ، وقد أوفينا هذا الموضوع حقه من البحث عند الكلام على ترتيب الآيات والسور فى القرآن .

أما عن كتابة المصحف العثمانى بالأحرف السبعة ، فان جمهور العلماء يميل الى أن المصاحف العثمانية اشتملت على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة وقد اختار القاضى أبو بكر الباقلانى هذا الرأى وقال « الصحيح أن هـذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضبطها عنه الأئمة وأثبتها عثمان والصحابة فى المصحف وأخبروا بصحتها وانما حذفوا منها مالم يثبت متواترا » [1] .

أما الرسم القرآنى فقد اتبعت اللجنة الرباعية فى استنساخ المصاحف طريقة خاصة ارتضاها عثمان بن عفان . فى كتابة كلمات القرآن وحروفه مما اصطلح العلماء على تسميتها «برسم المصحف » وينسبون هذا الرسم الى عثمان فيقولون « رسم عثمان » « أو الرسم العثمانى » .

---

(١) البرهان ، ص ٢٤٤ .

وقد أحيط هذا الرسم بهالة من الاجلال والتقديس حتى لقد بلغ الغلو ببعضهم أشده حين زعموا أن هذا الرسم القــرآنى توقيفى وضع منهاجه النبى بنفسه [1] ، وقد نقل ابن المبارك فى كتابه الابــريز عن شيخـــه عبد العزيز الدبـــاغ أنه قال له « ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحـــدة وانما هو توقيفى من النبى وهو الذى أمرهم أن يكتبــوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدى اليها العقول وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العــزيز دون سائر الكتب السماوية وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز !! » .

وقد فات ابن المبارك ... ان الثابت ، أن النبى عليه الصلاة والسلام كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة فكيف أمر الصحابة اذن أن يكتبوا القــرآن على الهيئة المعــروفة بزيــادة الألف ونقصانها ؟!

ولكن ماذا نقول فى علمائنا ـــ عفا الله عنهم ـــ الذين تفوتهم بديهيات الأمور ليضفوا على الرسم القرآنى هالة من التقديس والاجلال مع أن الأمر فى ذلك كله لا يعدو أن يكون أن الكتبة لاحظوا النطق فقط ، فليس من المنطق فى شىء كما يقول الدكتور صبحى الصالح ، أن يكون أمر الرسم توقيفيـــا ولا أن يكون له من الأسرار ما لفواتح السور فما صح فى هذا التوقيف حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] .

---

(١) الدكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .
(٢) الدكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

لذلك نجد من العلماء من لم يكتف بإباحة مخالفة الرسم العثمانى بل صرح فوق ذلك بأنه اصطلاحى ولا يعقل أن يكون توقيفيا ، ومن طليعة هؤلاء القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه « الانتصار » ــ حيث يقول :

« واما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا اذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه اذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه ولا فى نص السـنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا فى اجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسـات الشرعية بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل لان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجها معينا ولا نهى أحدا عن كتابته ولذلك اختلفت خطوط المصاحف فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصـطلاح وان الناس لا يخفى عليهم الحال ولأجل هذا بعينه ••• جاز أن يكتب المصـحف بالخط والهجـاء القـديمين وجـاز أن يـكتب بالخطـوط المحـدثة وجاز أن يكتب بين ذلك ••• واذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصـورة وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص ••• والسبب فى ذلك أن الخطوط

انما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الاشارات والعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت • وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنى له ذلك !! » [1] •

١٦ ــ احراق المصاحف الأخرى بعد جمع المصحف الامام :

المهم أنه بعد أن تم جمع المصحف الامام ــ اعيدت صحف حفصة اليها وظلت عندها حتى توفيت وقد حاول مروان ابن الحكم أن يأخذها منها ليحرقها فأبت حتى اذا توفيت أخذ مروان الصحف وحرقها وقال :

ــ انما فعلت هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الامام فخشيت ان طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب ! !

كذلك قرر عثمان احراق المصاحف الأخرى التى كانت موجودة عند بعض الصحابة كمصحف أبى ابن كعب ومصحف عبد الله بن مسعود •

ويأبى ابن أبى داوود ــ الا أن يذكر عددا من الروايات

---

(١) محمد عبد العظيم الزرقانى ، مناهل العرفان فى علوم القرآن ، ج ١ ص ٣٧٣ ــ ص ٣٧٤ •

المتضاربة فى هذا الموضوع ، فيتردد بين احراق الصحف تارة وبين تمزيقها وقذفها فى المـــاء تارة أخرى ولكن رواية البخارى هى الصحيحة وهى احراق تلك المصاحف •

ولم يقدم عثمان على هذا العمل الا بعد مشورة وتأييد من الصحابة ، ـــ يقول سويد بن غفلة :

ـــ قال على لا تقولوا فى عثمان الا خيرا ، فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف الا عن ملأ منا •

حتى عبد الله بن مسعود الذى كان لهمصحف خاص به ـــ يعتز به أيما اعتزاز ـــ وعارض فى احـــراقه فى بادىء الأمر ألهمه الله أن يرجع الى رأى عثمان الذى كان فى الحقيقـــة رأى الأمة كلها وهى حينذاك تنشد وحدة الكلمة والقضاء على أسباب النـــزاع •

••• ومع ذلك ـــ يذهب بلاشير ـــ دون ما سند ـــ الى أن على بن أبى طالب لم يقف موقف المؤيد من احـــراق عثمان للمصاحف الفردية بل كان تأييده له فى اعدامه لمـــا جمع من القرآن فى عهد الرســـول مفرقا فى الرقاع والاكتاف والأقتاب والعسب وكفى الأمة شر الاختلاف بازالة تلك الآثار المتفرقة التى يخشى أن تزيد مع الأيام أسباب الشقاق (1) •

---

(1) بلاشير ، المرجع السابق ، ص ٦٣ •

وغاية بلاشير من ذلك هي التشكيك في موقف على من صنيع عثمان مع أن ـ النصوص جميعها حتى عند شيعة على وانصاره المتحمسين له ـ قد تضافرت على تلقى على عمل عثمان بالرضى والقبول .

١٧ ـ عدد المصاحف العثمانية :

أما عدد النسخ التى تم نسخها من المصحف والتى أرسل بها عثمان الى الآفاق ، فقد اختلفت الروايات فى ذلك ، فقال عمرو الدانى « ان أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها على أربع نسخ وبعث الى كل ناحية واحدا ، الكوفة والبصرة والشام ، وترك واحدا عنده . وقد قيل انه جعله سبع نسخ وزاد الى مكة والى اليمن والى البحرين والأول أصح وعليه الأئمة » ـ أما السيوطى فيرى أن المشهور أنها خمسة ، ويميل الدكتور صبحى الصالح الى الرأى القائل بأن اللجنة استنسخت سبعة مصاحف فأرسل عثمان ستة منها الى الآفاق واحتفظ لنفسه بواحد منها ، يؤيد ذلك ما هو معروف من تمكن بعض الأفراد من الحصول على نسخ لأنفسهم أخذوها عن مصحف عثمان كما فعل عبد الله بن الزبير وأمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة [١] وقد أرسل عثمان مع المصحف الخاص بكل اقليم حافظا يوافق قراءاته ، فكان زيد بن ثابت مقرىء المصحف المدنى وعبد الله بن السائب مقرىء المكى والمغيرة بن شهاب مقرىء الشامى وأبو عبد الله السلمى مقرىء

---

(١) دكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٨٤ .

الكوفى وعامر بن عبد القيس مقرىء البصرى على أنه مهما يكن من أمر الاختلاف فى عدد النسخ التى تم نسخها فانها جميعا قد تماثلت فى اشتمالها على القرآن كله ، مائة وأربع عشرة سـورة خالية ـ من النقـط والشـكل ومن أسماء السـور والفواصل اقتداء بمصحف أبى بكر اذ كان مجردا من كل ذلك ، لقد كان العمل الذى أقدم عليه عثمان ضروريا لحسم كل نزاع بين الصحابة على الخلاف فى حرف أو كلمة أو شكل واو (١) .

١٨ ـ أوهام كازانوفا :

وعلى الرغم من وفرة النصوص التاريخية على جمع القرآن وتدوينه فى مراحله الثلاث على النحو الذى ذكرنا آنفا ، فان المستشرقون كازانوفا فى كتابه (محمد ونهاية العالم)
"Mohammed et la fin du monde"
ـ يأبى الا أن يصرح بارتيابه فى صحة هذه النصوص التاريخية ثم يقول بأغرب رأى فى عالم الدراسات القرآنية ـ فيذهب الى أن جمع عثمان للمصحف ما هو الا قصة وهمية أحكم نسجها فى عهد الخليـفة عبد الملك بن مـروان توطئة للمبالغة فى شـأن التحسينات التى أدخلت على رسم المصاحف فى عهد الخليفة المذكـور ، ولا يتورع هـذا الرجل عن القـول بأن الحجاج ابن يوسف الثقفى هو أول جامع للقرآن (٢) . ونحن بطبيعة

---

(١) محمد لطفى جمعة ، مقدمة « فى رحاب القرآن » ، تحت الطبع .

(٢) Casanova, Mohammed et la fin du monde, Paris, 1911, p. 127, 141.

الحال فى غنى عن التدليل على فساد هذا الرأى ويكفينا ردا عليه ما يقول به المستشرق بلاشير من أنه لا يمكننا قط أن نتابع كازانوفا على هذا الزعم الجــرىء الذى تنقصــه النصــوص التاريخية [1] .

١٩ ــ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون :

ونخلص من ذلك كله الى حقيقة لا ريب فيها عند علماء العالم تلك هى أن القرآن الموجود بين أيدينا الآن هو نفسه الذى نزل على النبى محمد بلا تغيير ولا تبديل ولا تحريف حرف واحد منه فضلا عن سورة أو آية ، ولا يمكن أن يقال فى حق القرآن ما قيل فى حق التوراة والانجيل من أن أصحابهما غيروا فيهما وبدلوا ، لان طريقة التنزيل والتحفيظ والتدوين كانت تتم كما لو كان القرآن فى بيت من البللور يراه الانســان من داخله وخارجه فى كل الأجيال فلا يخفى على أحد من الأحياء خافية من أمره حتى الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود قال « مانزلت آية من كتاب الله الا وأنا أعلم فيمن نزلت ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى ، تناله المطايا لأتيته !! » .

والذى نعلمه علم اليقــين ويعلمه كل باحث منصف ينشد الحقيقة أن كتابا غير القرآن لم يحط بالعناية التى أحيط بها ولم يصل بالتواتر كما وصل فجاء كما يقول شواللى « أكمل

---

(١) بلاشير ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .

وأدق مما يتوقعه أى انسان » • مصداقا لقوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » •

ولا شــك أن حفظ القــرآن من العبث والتغيير والتبديل والتحريف كسب كبير ، ولايهمنا ــ كما يقول محمد لطفى جمعه فى كتابه « فى رحاب القرآن » ــ تسليم المسلمين بهذه الحقيقة فانها جزء من عقيدتهم انما يهمنا تسليم خصوم القرآن من بعض المستشرقين والمتعصبين واتفاقهم معنا على أن القرآن باق كما أنزل لم تمسه يد بشر ، وهذه المسألة فى ذاتها تنفى تصنع النبى ذلك التصنع الذى نسبه اليه الكفار ، فلا شك فى أن محمدا بشر وقد أعلنت هذه الحقيقة فى القرآن عشرات المرات ولا شك فى أنه كان حوله من الصحابة رجال مثله على الأقل فى التفكير الانسانى ولو أنهم علموا تلميحا أو تصريحا ، شكا أو يقينا أن للرسول يدا فى وضع بعض القرآن أو تأليفه لما تأخروا بعد وفاته على ادخال أى تعديل يكون فى مصلحة الدولة أو السياسة فضلا عن أن يكون هذا طعنا فى أخلاقه وأخلاقهم وهذا من رابع المســتحيلات ، وحيث أن هذا لم يحدث باقرار المستشرقين أنفسهم وأن القرآن باق على حاله موضع الاحترام والتمجيد والتقديس ــ فلا ريب فى أنه تنزيل عــزيز حكيم ، ولا يمكن للصحابة ــ ومنهم أمثال عمر وأبى بكر وعلى بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف ــ أن يجمعوا على ضلالة أو خيانة أو جهالة لان تاريخ حياتهم يدل على عدم تعلقهم بمصلحة ما كما كانت المصلحة معدومة ومفقودة بتاتا فى شخص النبى فى حياته كما يدل على ذلك زهده ونسكه وكــرمه وخروجه عن

الدنيا ومن الدنيا وهو لا يملك غير القرآن أشرف رسالة وهدية للعالم حتى أنه لمـا سئل أبو بكر عن تركة النبى قال :

ـ لم يترك غير ما بين الدفتين •

أى دفتى المصحف •

٢٠ ـ تنقيط المصحف وتشكيله :

سبق أن ذكرنا أن المصاحف التى استنسخها عثمان بن عفان كانت غير منقوطة ولا مشكولة وذلك لتيسر قراءتها على الوجوه التى مر سماعها من رسول الله •

على أن خلو المصاحف العثمانية من النقط والشكل جعل رسم بعض الألفاظ القرآنيـة صـالحا لأن يقرأ بأكثر من وجه لقوله تعـالى « ان جاءكم فاسـق بنبأ ـ فتبينـوا » فقد قـرىء « فتثبتوا » وقد صلح الرسم بهذين الوجهين فى الآية لورود دليل قاطع على صحة القراءة بهما لأن رسول الله أقرأ بهما أو لأن أحد الصحابة قرأ بهما بحضوره فأقره ولم يعترض عليه

كذلك كل لفظ قرآنى لم يتوافر فى قراءته أكثر من وجه كان يكتب برسم واحد وكل ما صح فيه تواتر أكثر من وجه وتعذر رسـمه فى الخط محتمـلا لجميع الوجوه ، كان الناسخون يلجأون الى كتابته فى بعض المصاحف بوجه وفى بعضها الآخر بوجه ثان •

كقوله تعالى « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب » فقد تواتر فيه وجه آخر صـــحيح • « وأوصى » بالهمز لا بالتضعيف ،

وكذلك كتبت بعض المصاحف العثمانية بالتضعيف وفى بعضها الآخر بالهمز •

على أنه مهما يكن أمر هذا الاختلاف فى وجوه رسم بعض الالفاظ القرآنية فان هذا النوع قليل جدا وقد ذكر محصورا فى آيات معدودة فى الكتب المؤلفة عن المصاحف •

وقد ظل الناس يقرأون فى مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة ولكن عندما دخل غير العــرب فى الاســلام كالفرس وغيرهم ونشأ اللحن على الألسنة خيف على القرآن أن يلحن فى قراءاته فطلب زياد بن أبيه وكان أمير العراق الى أبى الأسود الدؤلى أن يضع للناس علامات تضبط قراءتهم ، فشكل أواخر الكلمات فى المصحف وجعل الفتحة نقطــة فوق الحرف والكسرة نقطة تحته والضمة نقطة الى جانبه من اليسار وجعل علامة الحرف المنون نقطتين •

ويروى المؤرخون فى هذا الموضوع قصة تشير الى شدة غيرة أبى الأسود الدؤلى على لغة القرآن فقد سمع قارئا يقرأ قوله تعالى « ان الله برىء من المشركين ورسوله » فقرأ بجر اللام من كلمة « رسوله » فأفزع هذا اللحن أبا الأسود رحمه الله وقــال :

ــ عز وجه الله أن يبرأ من رسوله •

ثم جد جده وانتهى به اجتهاده الى شكل أواخر الكلمات بالنقط على النحو الذى بينا آنفا •

وقد انتشرت طريقة أبى الأسود الدؤلى وعمل بها الناس • ولكن على الرغم من أن وضع هذه العلامات بصبغ مخالف لمواد الكتابة فان ذلك لم يحفظ الألسنة من الخطأ كل الخطأ • فكان يقع التحريف والتصحيف مع ذلك فى القراءة مما دعا الى اعجام الحروف وشكل أوائل الكلمات وأواسطها وأواخرها ، فوضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بأمر الحجاج نقط الاعجام ــ بنفس المداد التى كانا يكتبا بها الكلام حتى لا يختلط بنقط استاذهما ابا الاسود الدؤلى وكان ذلك فى خلافة عبد الملك ابن مروان : ثم شاع فى الناس بعد ذلك ولما استكثر الناس من اعجام الحروف لتسهيل التعليم ، اشتبهت نقط الاعجام بنقط الشكل مع أن هذه كانت تلون بمداد مخالف ، فكان من الصعب وضياع الوقت كتابتها بمدادين فاخترع الخليل بن أحمد الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واوا صغيرة تكتب فوق الحرف والفتحة ألفا والكسرة ياء والشدة رأس شين ــ والسكون رأس خاء وهمزة القطع رأس عين ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت الى الشكل المعروف الآن •

٢١ ــ تحسين الرسم القرآنى :

على أن تجويد الرسم القرآنى وتحسينه فى المصاحف قد مر بمراحل كثيرة استحدثت خلالها أمور كرهها العلماء أول الأمر ثم لم يلبثوا أن انتهوا الى اباحتها ، من ذلك كتابة العناوين

والأسماء فى رأس كل سورة والتنويه بما فيها من الآيات المكية والمدنية ووضع رموز فاصلة عند رءوس الآيات (اذ أن ترقيمها على النحو المعروف الآن لم يكن قد استحدث) وكذلك تقسيم القرآن الى أجزاء والأجزاء الى أحزاب والأحزاب الى أرباع والاشارة الى ذلك كله برسوم خاصة •

وبمرور الوقت أباح الناس لأنفسهم تجويد كتابة المصاحف وذهبوا فى ذلك كل مذهب ، وأسهم الخطاطون فى ذلك اسهاما كبيرا فتفننوا فى كتابة المصاحف وتأنقوا فى الخطوط أيما تأنق •

ولما ظهرت الطباعة أسـهمت بدورها فى نشر كتـاب الله العزيز ، فظهر القرآن مطبوعا لأول مرة فى البندقية حوالى سنة ١٥٣٠ م وان كانت السـلطات الكنسـية أصدرت حينذاك أمرا باعدامه حال ظهوره •

ثم قام هكلمان بطبع القرآن فى مدينة هامبورج سنة ١٦٩٤ ثم تلاه مراكى بطبعه فى بادو سنة ١٦٩٨ ، ثم ظهرت أول طباعة اسلامية خالصة للقرآن فى سان بطرسبرج بروسيا سنة ١٧٨٧ قام بها مولاى عثمان وظهر مثلها فى قازان • وقدمت ايران طبعتين حجريتين للمصحف ، احداهما فى طهران سـنة ١٨٢٨ والاخرى فى تبريز سنة ١٨٣٣ ثم قدم فلوجل سنة ١٨٣٤ طبعته الخاصة للقرآن فى ليبزج وقد تلقاها الاوربيون بحماسة منقطعة النظير بسبب املائها الحديث السهل ولكنها لم تصب نجاحا فى العالم الاسلامى • ثم عنيت الآستانة بطبع القرآن ابتداء من سنة ١٨٧٧ •

وفى سنة ١٩٢٧ ظهرت فى القاهرة طبعة أنيقة جميلة دقيقة لكتاب الله تحت اشراف مشيخة الأزهر وباقرار اللجنة التى عينت لذلك العمل الجليل وقد كتب هذا المصحف وضبط على ما يوافق رواية حفص لقراءة عاصم وقد تلقى العالم الاسلامى هذا المصحف بالقبول وأصبحت ملايين النسخ التى تطبع منه سنويا هى وحدها المتداولة لاجماع العلماء فى مشارق الارض ومغاربها على الدقة الكاملة فى رسمه وكتابته [1] .

---

(١) دكتور صبحى الصالح ، المرجع السابق ، ص ٩٩ وما بعدها .

القرآن والعلم والتاريخ

القــرآن والعـــلم :

١ ــ يحلو لكثير من المفسرين خصوصا فى العصور المتأخرة أن يتناولوا ما جاء فى القرآن عن الانســـان ووصف الســـماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب والبحار والجبال وسائر المشـــاهد والظواهر الكونية على ضـــوء العــلم الحديث ويحاولون تفسير ذلك تفسيرا علميـــا وفق النظريات العلمية الحديثة فى الطب والفلك والجغرافيـــا والطبيعة والجيولوجيا ويرفضون الرأى القائل بأن القرآن رسالة هداية وارشاد لا شأن له بأصول العلوم الكونية ، ويعبر بعضهم عن هذا الرأى بقوله:

« من الغريب أنه على الرغم من ذيوع العلم الحديث وتقدمه فى النصف الأول من القرن العشرين فانه لم يعرف الى الآن من دقائق معانى حديث القرآن عن الكائنات سوى قدر قليل وقبس ضئيل ويرجع السبب فى ذلك الى عوامل شتى أهمها فى رأينا وراثة العقيدة التى كانت ولا تزال سائدة فى الأذهان بأن القرآن رسالة هداية وارشاد ولاشأن لها بأصول العلوم الكونية ، وان حديثه عن الكائنات لا يحتاج فى فهمه الا لمجرد التعقل والخبرة العادية

ودركها ، وقد زاد من رسوخ هذه العقيدة رؤيتهم هذا الحديث مفرق الأجزاء بين السور والآيات المختلفة على غير ما هو معروف ومألوف لديهم فى تصنيف الكتب العلمية فظنوا بذلك أنه لاعلاقة ولا رابطة بين أجزاء هذا الحديث فى الموضوع الواحد فاستبعدوا وجود علم مفصل عن الكائنات فى القرآن وقد غاب عنهم بسبب ذلك طريق البحث فيه ألا وهو جمع آياته المتفرقة وتبويبها حسب موضوعاتها ثم بحثها بحثا كاملا » [1] .

ويعبر الدكتور الفندى عن ذلك بقوله :

« هناك من ينادى بأن العلم يتغير وكلام الله ثابت فلا يصح الربط بينهما ويرد مخالفو هـذا الرأى على ذلك بأن الحقائق العلمية لا يمكن أن تتغير أو تتبدل الى الحد الذى يجعل الحقيقة تنقلب الى عكسها والا ما كان العلم الا جهلا وما كان النور الا ظلاما هذا كما أن التعليق العلمى على كتاب الله لا يعنى فى حد ذاته سوى الاستنارة بالعلم فى تفهم القرآن حتى يظهر اعجازه العلمى اذا صح هذا التعبير ، لهذا فان التعليق العلمى على كتاب الله هو من واجبات كل عالم متخصص فى فـرع من فـروع العلم » [2] .

---

(١) الاستاذ حنفى أحمد ، معجزة القرآن فى وصف الكائنات ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢ ، ٣ .

(٢) دكتور محمد جمال الدين الفندى ، حـول التعليق العـلمى على القرآن الكريم ، مجلة منبر الاسلام عدد سبتمبر سـنة ١٩٦٨ ، ص ٢٣٤ .

ومنذ أن شاعت نزعة التفسير العلمى لما جاء عن وصف الكائنات فى القرآن حاول البعض وضع المؤلفات والمصنفات فى هذا المجال، فألف الشيخ طنطاوى جوهرى كتابه — « الجواهر فى تفسير القرآن » وكذلك كتابه « ميزان الجواهر » وحاول فيها تفسير بعض آيات القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة ، كذلك ألف محمد أحمد العزاوى كتابا عن « سنن الله الكونية » بحث فيه كثيرا من الآيات التى تشير الى الظواهر الجوية بحثا مستفيضا، ووضع الدكتور عبد العزيز اسماعيل كتابا عن « الاسلام والطب الحديث » فسر فيه بعض الآيات الكونية تفسيرا علميا أظهر وجه الاعجاز فيها ، كما وضع أحمد مختار باشا الغازى كتابه « رياض المختار » تناول فيه موضوع بحث الآيات الكونية فى القرآن ، كذلك ألف الاستاذ حنفى أحمد كتابا « معجزة القرآن فى وصف الكائنات » وتحدث فيه عن خلق السموات والأرض واعدادها للحياة ، وحاول محمد لطفى جمعه مثل هذه المحاولات فى كتابه « فى رحاب القرآن » وغير ذلك من المؤلفات والمصنفات •

٢ — ونحن مع تسليمنا واعتقادنا بأن القرآن ليس كتابا فى الجغرافيا أو التاريخ أو الفلك أو الطب أو العلوم الطبيعية ، ومع يقيننا بقول أبى بكر رضى الله عنه « أى أرض تظلنى وأى سماء تقلنى اذا قلت فى كتاب الله بما لا أعلم » — الا اننا لانعد الحقيقة اذا قلنا أن بعض هذه المحاولات انما دفع اليها الصدق والاخلاص وحسن النية والرغبة فى اثبات اعجاز القرآن مصداقا لقوله تعالى « مافرطنا فى الكتاب من شىء » ذلك أن اعجاز القرآن ، كما هو فى الكشف عن وجوه البلاغة القرآنية وبيان

أسلوبه الفذ فى التصوير والتعبير وابراز عناصر الجمال الفنى فيه ـ فان اعجازه يبرز أيضا فى بيان موافقة ما جاء به من آيات فى وصف الكائنات والمخلوقات والظواهر الطبيعية والكونية لأحدث النظريات العلمية ••

فلا ضير اذن فى أن يفسر قوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » بمعنى كورها وجعلها كالكرة وأن يفسر قوله تعالى « والأرض وما طحاها » بمعنى جعلها تدور من طحا بالكرة أى رمى بها وقذفها ، لان ذلك أمر ثابت علميا منذ أيام الفيثاغوريين وفلاسفة الاغريق القدماء الذين قالوا بكروية الأرض وانها تلف حول نفسها وبذلك يتولد الليل والنهار ، وقد تأيد ذلك بما لا يدع مجالا لأدنى شك برحلات الفضاء فى العصر الحديث ورؤية رواد الفضاء وهم بداخل مركباتهم للكوكب الأرضى وهو أشبه بالكرة تدور فى فلكها حول نفسها •

ثم أليس هذا التفسير العلمى الذى يوافق نظريات العلم ولا يصطدم بها خيرا من تفسير بعضهم بأن المقصود بقوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » أى مدها وبسطها ؟ !

ثم ماذا يضير لو فسر قوله تعالى « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله » بما ثبت علميا من أن السحب تأتلف فعلا اذ آن ـ بعض دقائق الهواء مكهرب يقوى التكهرب لأسباب متعددة ووجود هذه الكهربية فى دقائق الهواء يجعل منها نوى يساعد كثيرا على تكاثف

بخار الماء على هيئة دقائق مائية سحابية مكهربة بنوعى الكهرب الموجب والسالب فى الطبقات العليا من الجو والتجاذب الكهربى بين نوعى الدقائق السحابية يساعد كثيرا على تقريب بعضها من بعض وائتلافها عند تراكم السحاب ثم على اجتماع بعضها من بعض وتكوين قطرات مائية تسقط بغزارة وبسرعة على صورة مطر وتتحد شحنتا التكهرب بدقائق السحاب العادى بهدوء ولكنهما تتحدان بقوة بين كتل السحاب الرعدى فيحدث البرق والرعد والصواعق أحيانا [1] .

نقول انه لابأس من تفسير آيات القرآن فى وصف الكائنات على ضوء نظريات العلم الحديث ، ولكننا لا نميل مع ذلك الى تحميل هذه الآيات مالا تحتمل من المعنى والغلو فى ذلك غلوا غير مقبول، ذلك أن تفسير القرآن اما أن يكون تفسيرا بالمأثور مستندا الى الصحابة والتابعين وتابعيهم كتفسير ابن جرير الطبرى ، المعروف بجامع البيان فى تفسير القرآن وكذلك تفسير ابن كثير — واما أن يكون التفسير بالرأى وقد اختلف العلماء حول هذا النوع من التفسير فحرمه البعض واجازه آخرون ، وان كان هذا الاختلاف يرجع فى حقيقته الى أن المحرم منه هو الجزم بأن مراد الله كذا من غير برهان أو محاولة تفسير القرآن مع جهل المفسر بقواعد اللغة وأصول الشرع أو تأييد بعض وجهات النظر بآيات من القرآن زورا وبهتانا .

---

(١) أحمد حنفى ، معجزة القرآن فى وصف الكائنات ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

ولا شك فى أنه لا مانع من محاولة التفسير بالرأى طالما كانت الشروط متوافرة فى المفسر بل أن القرآن نفسه يدعو الى هذا الاجتهاد وفى تدبر آياته ، يقول تعـالى ـ « أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ ويقـول « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

٣ ـ شـبهات المستشرقين حول موقف القرآن من النظريات العلمية :

ومع أن آيات القرآن فى وصـف السماء والأرض والكواكب والنجوم والشمس والقمر وخلق الانسان واختلاف الليل والنهار وغير ذلك من الكائنات والظواهر الكونية ـ قد جاءت مطابقة لأحدث ما اكتشفه العلم الحديث من نظريات فى الفلك والطبيعة والجغرافيا والطب ـ الا أن بعض المستشرقين يأبون الا أن ينالوا القرآن من هذه الناحية أيضا فيزعم المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ـ أن القرآن جاء بنظرية رئيسية هى أن الأرض مسطحة وليست كروية !! ويحاول أن يربط بين هذه النظرية وبين ماعرفه اليهود واليونان عنها ، وقد حمله على هذا الزعم جلهه ببلاغة اللغة العربية فتصور كلمات « القرار والمهاد والفراش والبسط » تصورا حسيا وقد جاءت هذه الكلمات وصفا للأرض فى الآيات الآتيـة :

ـ أم من جعل الأرض قرارا (النمل : ١٦) .

ـ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا (النبأ ٦) .

ـ الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء (البقرة ٢٢).

ـ والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا (نوح ١٩) .

ـ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (الزخرف ١) .

واستدلال كراتشكوفسكى بهذه الآيات على أساس التفسير اللفظى والحسى لمدلول هذه الكلمات دليل على جهله التام بأسرار الأسلوب البيانى الذى يتميز به القرآن .

ولعل كراتشكوفسكى قد نسى أو تناسى قوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » أى كورها ، يقول ابن الرومى :

ان أنسى لا أنسى خبازا مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصـــــر
ما بـــين رؤيتهـــا فى كفـــه كـــــرة
وبين رؤيتهـــا قوراء كالقمـــــــر

الا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

كذلك يتصـــور هذا المستشرق ـــ الذى ترجم القـــرآن الى الروسية ـــ ان القرآن قد وصف السماء وصفا ماديا حسبما اذ خيل اليه أن كلمة « بنينا » فى قوله تعالى « وبنينا فوقكم سبعا

شذادا » وكلمة سقف فى قوله تعالى « وجعلنا السماء سقفا محفوظا » « قد وضعت على حقيقتها اللغوية ، وهذا لا شك خطأ وقع فيه هذا — المستشرق الروسى لجهله ببلاغة القرآن واسرار اللغة التى نزل بها واستخدامه للاساليب الفنية المجازية ، ففاتته هذه الدقائق البلاغية كما عزت على غيره من علماء الاستشراق.

هذا بالاضافة الى أن هؤلاء المستشرقين يقحمون العقيدة الدينية فى مجال البحث العلمى ويتصورون ان القرآن انما هو كتاب فى التاريخ أو الفلك أو الجيولوجيا وغير ذلك من العلوم وغاب عنهم أنه قبل كل شىء كتاب رسول ورسالة وحى من السماء [1] .

أما المستشرق الايطالى فللينو فانه يؤكد فى كتابه « تاريخ الفلك عند العرب فى القرون الوسطى » — ان قدماء أهل بابل قد تصوروا السماء كأنها سبع طبقات منضدة .. وجعلوا فى كل طبقة أحد النيرين والكواكب الخمسة المتحيرة على حسب قدر أبعادها عن الأرض وهو فى طبقته كأنه ساكنها وربها فانتشر هذا الرأى عند أمم أخرى مثل اليونان والسريان ودرج عند عوامهم أيضا حتى أخذه أهل الحضر فى الجاهلية كما يظهر من ورد ذكره فى جملة من النصوص القرآنية كقوله تعالى :

— تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن (الاسراء)

---

(١) أبو الفتوح أحمد التوانسى ، ياقوت الحموى ، ص

ـ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن (الطلاق)٠

ـ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق (المؤمنون) ٠

ـ فقضناهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها (فصلت) ٠

ـ ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا (نوح) ٠

ـ وبنينا فوقكم سبعا شدادا (النبأ) ٠

كذلك يقول كراتشكوفسكى ان القرآن قد أتى بنظرية البحار السبعة مؤيدا زعمه هذا بقوله تعالى « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » (لقمان) ـ ويحاول ارجاع الاشارة الى البحار السبعة الى أنه ترجمة لحكمة عبرية قديمة ٠

أما بوهل Buhl وتولدكه Noldëke ـ وغيرهما من المستشرقين فانه يحلو لهم أن يشيروا الى أن عدد السبعة له فعل سحرى فى نفوس الساميين فكانت السماوات فى القرآن سبعا والأرض سبعا والبحار سبعا !!

والحقيقة التى لاشك فيها أن هؤلاء المستشرقين يجهلون التعبير البيانى فى الآيات التى ورد فيها ذكر العدد سبعة وأن هذا العدد غير مقصود بذاته وانما يراد به فى اللغة العربية مطلق التعدد ٠

كذلك نلاحظ كراتشكوفسكى فى كتابه تاريخ الأدب الجغرافى

العربى — قد جره جهله ببلاغة القرآن وحسن استخدامه للأساليب الفنية المجازية — الى الوقوع فى أخطاء أخرى منها أن القرآن حينما تحدث عن الشمس والقمر كان ذلك الحديث بقصد بيان مهمتها الأساسية وهى تحديد الوقت اليومى أو الشهور ، كذلك يرى فى الآيات التى ذكرت المشرقين والمغربين أنها آيات غامضة •

ونحن نسأل هذا المستشرق ما هى المهمة الاساسية للشمس والقمر ؟ أليست هى — لتحديد الايام والشهور والسنين ؟ أليس التقويم الشمسى والتقويم العربى (القمرى) أساسها حركة الشمس والقمر ؟

ومع ذلك كله فقد ذكر القرآن للشمس والقمر مهاما أخرى كثيرة غير تحديد الوقت كما يزعم كراتشكوفسكى •

ولعله أن يكون من المفيد أن نشير فى هذا الصدد الى قوله تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » (يونس) وقال « وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا » — ففرق القرآن بين الضوء الذى يصدر من ذات الاجسام التى تضىء بنفسها كالشمس وبين الضوء الذى تكسبه الاجسام المظلمة من غيرها ثم تعكسه كالقمر فسمى الأول ضياء وسمى الثانى نورا وبذلك اتفق القرآن مع العلم فيما ذكره عن الشمس والقمر اذ ثبت علميا ان الشمس كتلة غازية ملتهبة تستمد طاقتها

من مركزها من تفاعلات بين نوى العناصر فيها فى حين أن القمر جرم مظلم وضوؤه مكتسب ومعكوس منه [1] !!

أما عن المشرقين والمغربين الوارد ذكرهما فى قوله تعالى « رب المشرقين ورب المغربين » فقد قيل فى تفسيرهما ا للشمس فى كل مكان بالنصف الشمالى من الأرض مشرقين فى كل عام يكون أحدهما أقرب مايكون من شمال الأرض وذلك فى الصيف حين يبلغ النهار أقصى طوله والآخر أبعد ما يكون عن شمال الأرض وذلك فى الشتاء حين يكون النهار أقصر مايكون ، وأن لها مغربين يناظران هذين المشرقين يكون أحدهما بعكس المشرق أبعد ما يكون عن جنوب الأرض صيفا والآخر أقرب مايكون منه شتاء وبعبارة أخرى ان قطبى الأرض يتمايلان قربا وبعدا من الشمس فى الفصول المختلفة كل عام فى أثناء سيرها فى فلكها الخاص وأن هذا التمايل ينشأ عنه اختلاف زمنى الليل والنهار على الأرض فى الفصول المختلفة من السنة [2] وهذه الظواهر التى تحصل فى النصف الشمالى من الأرض تحصل بالعكس فى نصفها الجنوبى.

كذلك حيرت كراتشكوفسكى نظرية البحرين فذهب يبحث عن تفسير لها فى كلام ـــ المستشرقين قبله من أمثال بارتولد الذى يقول انهما نهرا الفرات والخليج الفارسى وفنسنك الذى يزعم ان الآيات المتعلقة بالبحرين تفترض وجود محيط سماوى

---

(١) معجزة القرآن ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

(٢) معجزة القرآن ، المرجع السابق ، ص ١١٦ .

ويتساءل هؤلاء المستشرقون كيف يلتقى الماءان وبينهما حاجز وحجر محجــور ؟

وتلك بطبيعة الأحوال تأويلات وتفسيرات بعيدة كل البعد عن المقصود بالبحرين فى قوله تعالى « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج » « وقوله » « وهو الذى مرج البحرين ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » « وقــوله » « مرج البحـــرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » •

وهذه الآيات واضــحة المعنى ظاهرة الدلالة لالبس فيها ولا غموض اذ المقصود بها أن ماء البحر لا يمكن أن يبغى على ماء النهر فى مجراه ويغيره الى ماء ملح الا قليلا جدا عند مصبه وذلك راجع كما اثبت العلم الى اختــلاف كثافة كل من المــاءين فلا يختلطان ولا يمتزجان ولا يبغى أحدهما على الآخر وهذ اهو البرزخ أو الحجر المحجور أى الحاجز والمانع !!

ونخلص مما تقدم جميعه الى أن ماجاء بالقرآن من آيات فى وصف الكائنات الكونية والظواهر الطبيعيـــة لا يجافى ما أثبتته العلم الحديث ولايصطدم معنظرياتهكمايزعم بعض المستشرقين•

ويكفينا فى هــذا الصـــدد أن نقول ان القـــرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى جاء به ذكر الذرة وضرب بوزنها المثــل فقال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وقال أيضا « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » (سبأ : ٣) •

ولعله آن يكون من المعروف ان العلم أثبت بعد تفتيت الذرة أن هناك من الــكائنات ما هو أصغر وأدق من الذرة وهى الكهارب (الالكترونات) والبروتونات (النوى) ••• والنترون وهى كلها أجزاء تتألف منها الذرة !!

كذلك يزعم بعض هؤلاء الناقدين أن من أكبر مايستحقه النقد من الناحية العلمية ـــ ذكر القرآن عن خصوبة وادى النيل نزول المطر وليس فيضان النيل وذلك فى سورة يوسف « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » والمقصود بكلمة يغاث هنا أى يغاثون بالغيث وهو المطر ويعصرون العنب ، والرد على هذا الاعتراض الغير وجيه بسيط جدا وما كان يجوز أن يغاث هنا أى يغاثون بالغيث وهو المطر ويعصرون العنب،والرد هو السبب المباشر لخصوبة أرض مصر مكون من المطر الذى يقع فى جبال أواسط افريقيا ويمــلأ بحيرات فيكتوريا فينزل ثم ينهمر منحدرا الى مصبه وكذلك الامطار التى تنزل فى الحبشة وتملأ بحيرة « تسانا » وان السنين التى حصل فيها الجدب فى زمن يوسف هى سنين تشريق أو شرق فتهبط مقاييس النيــل كما يحدث فى بعض الأحيان فى عصرنا الحاضر •

فالقرآن لم يخطىء ولم يجهــل قوانين الطبيعة والمطر الذى يرى فى مصر قليلا هو نفسه الذى يجلب الخصوبة لمصر لانه ينزل فى منابع النيل الذى خلقه الله خصيصا لمصر [١] •

---

(١) محمد لطفى جمعة ، مقدمة كتاب « فى رحاب القرآن » ، تحت الطبع .

القرآن والتاريخ

٤ ـ كذلك لم يتورع بعض المستشرقين عن اثارة الشبهات حول ماجاء فى القرآن عن تاريخ الأنبياء وأسمائهم وتاريخ الامم البائدة والحضارات السابقة مع أن القرآن صحح أخطاء كثيرة مما وردت فى الكتب السابقة مما يتناول عصمة الأنبياء وفند بعض المغالطات التاريخية وفصل كثيرا من أحوال موسى فى مدين، ووصف ولادة السيدة مريم لعيسى عليه السلام وكفالة زكريا لها وأسهب فى سرد قصة يوسف وأخوته ونزهه عما جاء عنه فى التوراة من استعباده المصريين وارغامهم على رهن أراضيهم ومواشيهم وعلى نسائهم لفرعون ثم رهن أنفسهم عبيدا لرب البيت العالى .. كما نزه لوطا وسليمان وغيره من أنبياء بنى اسرائيل عما جاء عنهم فى التوراة مما هو معروف لكل من قرأ أسفار العهد القديم ، ومن الغريب أن رجلا مثل مرجليوث يتوهم أن القرآن نزل ليكون سفرا من التوراة أو سجلا لتاريخ اليهود فيزعم أن بعض أسماء الأنبياء العبرانيين التى وردت فى القرآن مغلوط فجاء طالوت بدلا من شاول وجالوت مكان جولياث وكذلك اسم جدعون ... »

وهو يشير بذلك الى قوله تعالى « اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا » .

وهو صموئيل وان لم يصرح القرآن بذكر اسمه •

مع أن القرآن أطلق على شاول اسم طالوت لانه كان أطول القوم أما جالوت فانه من جال وصال فى الميدان وقد كانت هذه صفة جولياث وطالوت من طال وارتفعت قامته وهو أفضل من شاول الذى كان يضرب المثل بحقارته حتى فى التوراة حتى قيل « وشاول بين الأنبياء » والمعلوم انه لايوجد ملك فى عهد صموئيل حاربه جالوت وانتصر عليه بواسطة داوود غير شاول هذا ، فضلا عن أن وصفه وكبر جسمه كفيلان بأن لايحدث خطأ فى تحديد شخصه كما أنه لم يحدث خطأ فى تحديد شخص صموئيل مع أنه لم يذكر اسمه بتاتا لأن أسفار التوراة موجودة ومعروفة للجميع وتحريفها حدث قبل الرسالة المحمدية وليس الكلام موجها لبنى اسرائيل وانما موجه للعرب ليقتدوا بحوادث الجهاد والقتال الضرورية للأمم فى الدفاع عن الحق ، فهى أخبار تاريخية وقصص يجوز للمتمثل بها أن يذكرها ولو بغير أسماء أبطالها •

كذلك زعم مرجليوث أن محنة جيش طالوت (شاول) كانت بمنعهم عن شرب المـــاء بغزارة من نهر قبيل ملاقاتهم العدو وزعم أن هذا حدث لجدعون وأن المنع من الشرب كان منصبا على نهر أو عين مــاء •

وهذا زعم فاسد لان عين الماء لمتذكر حتى يكون الكلام منطبقا على جدعون كما أنه لم يذكر فى التوراة أو غيرها ما ينفى مرور طالوت بنهر ــ قد يكون نهر الاردن ــ ومنعه جنوده الشرب من ماء ذلك النهر •

ونحن نقول لمرجليوث انه لو كان القصد التبسط فى تاريخ بنى اسرائيل لاسهب القرآن فى وصف داوود وجالوت ومعركتهما وكيف كانت الغلبة للصبى على العملاق بأداة صغيرة هى المقلاع ، ولكن المقصود هو تحريض المؤمنين على القتال فى المدينة وأخذ المثل من نفس تاريخ اليهود الذين يعاندون الرسول ويخذلون رجاله عن الحـــرب .

٥ ــ أما ما جاء فى سورة الكهف عن ذى القرنين ، فقد خلط بعض المفسرين المسلمين بين ذى القرنين المؤمن المذكور فى هذه السورة وبين الاسكندر المقدونى الوثنى [١] وكان فى خلطهم هذا مادة للتعليق فى أبحاث المستشرقين ، فزعموا أن القرآن استعار هذه القصة من مؤرخ رأى نقودا مضروبة فى زمن الاســكندر الأكبر وعلى رأســه قرنا خروف أو كبش كالتى كان يرسمها المصريون القدماء على رأس آمون .

٦ ــ أما قصة أهل الكهف فقد زعم بعضهم أن القرآن ذكر أنهم ناموا تســعا وثلاثمائة سنة حين أن القصـــة التى تعرفها المسيحية فى أساطيرها الذهبيـــة Legende doril والتى كتبت بالسريانية فى القرن الخامس الميلادى تجعل رقاد هؤلاء

---

(١) ذهب بعض المسلمين الى أن الاسكندر الأكبر كان خارجا على تقاليد الاغريق وان رجلا كان هذا تفكيره لا مانع من أن يكون له تفكير خاص عن الوثنية مما يتيح للقرآن الحق أن يثنى عليه وأن حديث القرآن عن ذى القرنين عبارة عن صورة مختصرة لتاريخ حياة الاسكندر الأكبر .

الفتية فى الكهف قرنين من الزمان فقط فقد بدأ رقادهم فى عهد الامبراطور دقيانوس (بين عامى ٢٤٨ الى ٢٥١) ثم استيقظوا فى عهد تيودوسيوس بعد ست وتسعين ومائة سنة !!

ولعل هــذا الزعم لا يقف على قدميه اذا رجعنا الى النص القرآنى فى شأن مدة رقادهم اذ يقول تعالى «ولبثوا فى كهفهم»

وهذا نص قاطع فى عدم تحــديد القرآن لمــدة رقادهم فى الكهــف .

كذلك يزعم بعض المستشرقين أن القرآن ذكر أن هامان وزير لفرعون موسى مع أن أشد اليهود جهلا — لايخطئون أبدا فى أن هامان هو وزير اهازوريس Ahasuerus كما ذكر القرآن أن مريم اخت لموسى على الرغم مما هو معروف من أن مريم هى أم المسيح [1] .

كذلك يزعمون أن القرآن أخطأ فى القربان المقدس كما جاء فى الآية ١١٢ من سورة المائدة « اذ قال الحواريون » .

وليس فى هذه الآيات الثلاث أى انحراف عن الحقيقة المسيحية أو التاريخية بل ان ماذكره القرآن هو نفسه ماوقع بين عيسى والحواريون فى شأن القربان المقدس .

وعلى كل حال فقد خرج القرآن من معركة النقد الحديث الذى

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج ١٦ ، ص ٦٠٠ .

غذته كشوف القرون الحالية ظافرا فى حين أن نقد التوراة على أيدى أصحابها هو الذى خرج ظافرا مصداقا لقوله تعالى عن كتابه العزيز « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .

جُهُودُ الْمُسْتَشْرِقِينَ فِي خِدْمَةِ الْقُرْآن

وبعـــــد ......

فان أى منصف لايستطيع ــ رغم ماتجنى به بعض المستشرقين وما أثاروه من شبهات غليظة حول القرآن ــ الا أن يذكر بكل تقدير لبعض علماء الاستشراق جهودهم المحمــودة فى خدمــة القرآن وفضلهم الذى لاينكر فى دراسته وبحثه سواء بترجمته الى لغتهم أو ترقيم آياته وفهرستها وغير ذلك من الدراســات والمباحث القرآنية .

ولعل علماء المشرقيات من الألمان أن يكونوا أكثر العلماء حظا وأوفرهم نصيبا فى خدمة القرآن ، بل ان لهم فضل السبق على غيرهم فى هذا المجال ويكفى أن نذكر فى هــذا المقام أن أقدم نسخة مطبوعة من القرآن وصلتنا هى ماقدمها ابراهام هنكلمان فى مدينة ليبزج سنة ١٩٦٤ .

كذلك كانت الحاجة الى الرجوع الى القرآن وآياته تزداد كل يوم وكانت طريقة العلماء المسلمين فى الوقوف على آية بذاتها

فى سورة معينة — وهى الاشارة الى الجزء أو مواطن السجود مثلا — تحتاج الى قراءة نصف صفحة تقريبا وأحيانا أكثر من ذلك حتى يقف الباحث على ضالته المنشودة ، الى أن وضع جوستاف فلوجل فهرسا أبجديا لكلمات القرآن أشار فيه الى رقم السورة ورقم الآية وطبع قرآنا فى مدينة ليبزج سنة ١٨٣٤ درج على رقم الآيات قرين كل آية ولا تزال طريقته مأخوذا بها الى وقتنا هذا حتى أن علماء الافرنج عندما — يستدلون بالقرآن يذكرون عادة السورة والآية حسب ترقيم فلوجل بل ويراعون ذلك الترقيم فى تراجم القرآن بلغاتهم •

على أن فلوجل لم يكن يعرف ترقيم الآيات عن المسلمين ولذلك فقد أصاب أحيانا وأخطأ أحيانا أخرى الا أن الفرق بين ترقيم فلوجل وترقيم القرآن المطبوع فى مصر لا يعدو أن يكون ست آيات ولذلك درج العلماء على ذكر الرقمين معا •

وغنى عن البيان أن العلماء المسلمين قد عنوا بعلوم القرآن منذ زمن قديم عناية فائقة فألفوا فى تاريخه وتدوينه واختلاف قراءاته واعجازه وعلومه وتفسيره وغير ذلك ، على أن أوسع خزانة من المعلومات فى هذا الموضوع يرجع اليها كل باحث وأن لم يتفق مع مؤلفها فى أمور كثيرة هو كتاب المستشرق الالمانى تيودور نولدكه الذى أخرج الطبعة الاولى منه سنة ١٨٦٠ ثم تولى تلميذه شوالى الطبعة الثانية فنشر المجلد الأول سنة ١٩٠٩ والثانى سنة ١٩١٩ ثم زاد فيه بركشتريسر وبريتسل الالمانيان مجلدا ثالثا سنة ١٩٣٨ •

ولم تقتصر جهود علماء المشرقيات على هذا المجال فحسب بل لقد أنشأت جامعة ميونخ معهدا خاصـــا للأبحاث القرآنية وصرف الاستاذان بركشتر يسر ثم من بعده بريتسل عمرهما فى ادارة هذا المعهد ،كمابذلت الجامعةوالحكومة أموالا طائلةلانشائه وتطويره وتزويده بكل ما يتصل بالقرآن حتى أصبح أكبر متحف قرآنى فى العـــالم ، ويكفى للدليل على ذلك أن نــذكر ما فعله القائمون على هذا المعهد فى خدمة القرآن •

١ ــ فقد جمعوا فيه أهم ما يوجــد من المطبوعات العربية خاصة فى التفسير وعلوم القرآن والقراءات •

٢ ــ كذلك جمعوا بواســطة التصوير الفوتوغرافى مالم يطبع من الكتب فى هذا الموضوع فى جميع أنحاء العالم •

٣ ــ وحصلوا على صور فوتوغرافية لآلاف من نسخ القرآن الخطية من جميع العصور وسافروا من أجل ذلك الى جميع أنحاء العالم شرقا وغربا ووصلت اليه أيديهم حتى ما كان على ورقة أو ورقتين ، فذخروا بنسخ من القـــرن الأول للهجـــرة الى عصرنا هذا وكان غرضهم من هذا العمل الجليل أن يقارنوا بين جميع تلك النسخ فلم يجدوا فيها الا أغلاطا كتابيـــة وأخطاء املائية ، كما هدفوا من وراء ذلك الى دراســـة الخط العربى وتطوره وتجليد وتزيين المصاحف وغير ذلك من العلوم •

٤ ــ كذلك بدأوا العمل فى أوسع تفسير للقرآن ، فجعلوا لكل آية صندوقا خاصا بها ووضعوا فيه تفسير تلك الآية لكل

مفسر منذ عصر الصحابة الى يومنا هذا ورتبوا تلك التفاسير والاقتباسات ترتيبا زمنيا حسب المفسر الاقدم فالاقدم • وبذلك يمكن معرفة تطور التفسير لكل كلمة ولكل آية من آيات القرآن

ولكن للأسف الشديد ضاعت كل هذه الجهود وهلك كل من كان فى هذا المعهد وما كان فيه من الذخائر نتيجة لسقوط القنابل عليه ابان الحرب العالمية الثانية [1] !! •

ولم تقتصر جهود علماء المشرقيات على ذلك فحسب بل لقد ترجموا القرآن الى لغاتهم ، وقد نشر الدكتور محمد حميد الله سـنة ١٩٤٥ كتابا اسمه « القرآن فى كل لسـان » أورد فيه فهرسة للترجمة القرآنية فى كل لغة عرفها المؤلف سواء كانت كاملة أو غير كاملة ، وكذلك أورد فيه نموذجا لسورة الفاتحة فى جميع هذه اللغات • وقد ذكر هذا المؤلف فى الطبعة الأولى سنة ١٣٦٥ هـ أنه عثر على ٢٣ لغة ترجم اليها القرآن وفى الطبعة الثانية سنة ١٣٦٦ هـ ذكر ٤٣ لغة وفى الطبعة الأخيرة سنة ١٩٦٧ ذكر ٦٧ لغة من لغات العالم ترجم اليها القرآن ، ويقول أن عدد اللغات التى ترجم اليها القرآن قد وصـل الآن الى أكثر من مائة لغـة !

على أن أكثر هذه اللغات يحتوى على أكثر من ترجمة واحدة ، ففى اللغة الارديه مثلا أكثر من مائة ترجمة ثم يليها الفارسية والتركية وفى كل واحدة منهما أكثر من خمسين ترجمة •

---

(١) دكتور محمد حميد الله ، الالمان فى خدمة القرآن ، مجلة فكر وفن ص ٢٨ •

أما سائر اللغات فى أوربا فيوجد فيها تراجم بالخط العربى باللغة الاسبانية ويسمونها (الخميادو) وفى اللغـة اللتوانية واليوغوسلافية ، كذلك توجد ترجمتان للقرآن فى اللغة الالبانية و ٤٢ ترجمة الى اللغة الألمانية و ٥٧ ترجمة فى اللغة الانجليزية و ٣٣ ترجمة للغة الفرنسية و ٤٢ ترجمة للغة اللاتينية و ١١ ترجمة للروسية وغير ترجمة فى اللغـات الاوكرانية والبرتغالية والبلغارية والبولونية والدنمركية والرومانية والفنلندية والمجرية والنرويجية والسويدية واليونانية ، حتى لغة الاسبرانتوا توجد فيها ترجمة القرآن .

ولا يسعنا ونحن نختتم هذا البحث الا أن نقول أن بعض المستشرقين ممن بذلوا جهودهم فى خدمة القرآن ـــ علماء فضلاء محترمون فى أوطانهم ولهم أديانهم الظاهرة وقد وقفوا أعمارهم وأموالهم على خدمة الدين الاسلامى ولا يوجد فى الشرق ولا فى الاسلام من تخصص فى دراسة أديانهم ان لم يكن من اتباعها وقد انعشت اعمال هؤلاء المستشرقين الأمة الاسلامية ووجهت مفكريها نحو البحوث الجادة والمجيدة والله ولى التوفيق "

المراجـــع

باللغـــة العربية :

السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ، سنة ١٩٤١ .

الواحدى : أسباب النزول ، سنة ١٣٥١ هـ .

الباقلانى : اعجاز القرآن ، سنة ١٣٤٩ هـ .

الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، أربعة أجزاء سنة ١٩٥٧ .

الطبرى : تفسير الطبرى المعروف بجامع البيان فى تفســـير القرآن ، سنة ١٩٠٣ .

ابن قيم الجوزيه : زاد المعاد فى هدى خير العباد ، سنة١٣٢٤هـ

مالك بن بنى : الظاهرة القرآنية ، سنة ١٩٥٨ .

جولد زيهر : مذاهب التفســـير الاسلامى ، ترجمـــة الدكتور عبد الحليم النجار سنة ١٩٥٥ .

محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ، سنة ١٩٣٥ .

محمد لطفى جمعه : ثورة الاسلام وبطل الأنبياء أبو القـــاسم محمد بن عبد الله سنة ١٩٥٨ ، تاريخ فلاســـفة الاسلام ، سنة ١٩٢٦ ، سنة ١٩٧٠ ، فى رحاب القرآن ، تحت الطبع .

دكتور صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ، سنة ١٩٦٨ .

دكتور محمد حميد الله : الألمان فى خدمة القرآن ، مجلة فـــكر وفن صفحة ٢٨ ، السيرة الحلبية ، سنة ١ .

باللغـــة الافرنجية :

1) William Muir, The Coran, its composition and teatching, London, 1878.

2) Blachère, R. Introduction au Coran, Paris, 1947.

3) Buhl, F. art Korân, L'Encyclopedie de l'Islam II, II31 a.

4) Casanova, Mohammed et la fin du Monde, Paris 1911.

5) Encyclopaedia Britannica, 9th ed, V. 16, The Koran.

6) Arthur Jeffery, Materials for the history of the Koran.

7) Muir and Sprenger, The liver of Mohammed.

مطابع الاهـــرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٣ / ٣٢١٥

تصويب

الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	السطر
فقضناهن	فقضاهن	١٣٥	الثالث

مطابع الأهرام التجارية



الثمن ٥ قروش